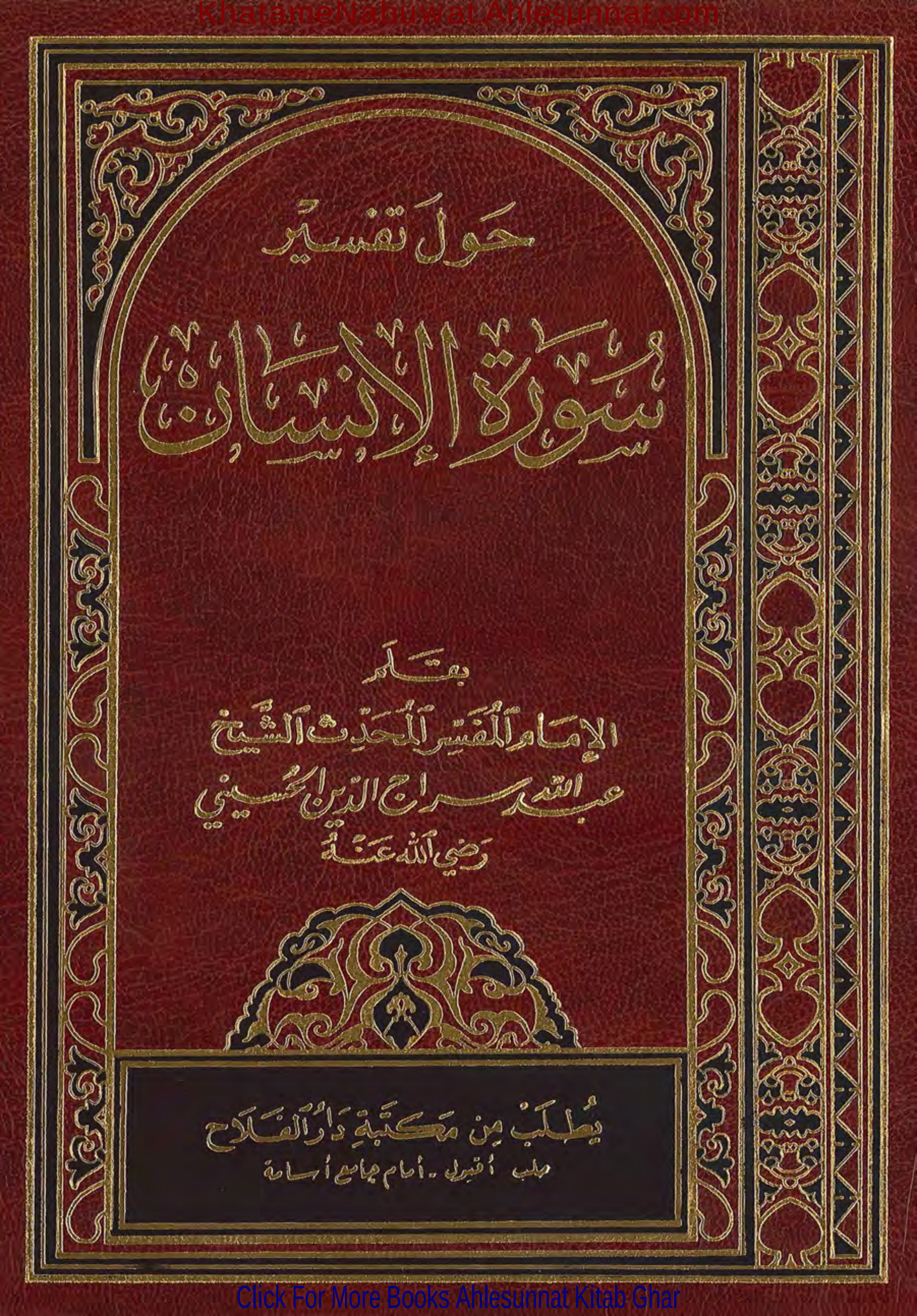
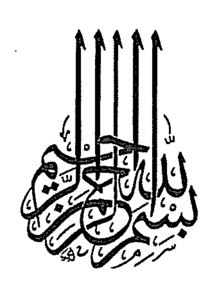

حول تفسير
سورة الإنسان
بقلم
الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رضي الله عنه
يطلب من مكتبة دار الفلاح
حلب أقيول - أمام جامع أسامة



أيّها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلّما قرأت في كتاب من كتبي ، وأهدِ ثوابها إلى العلّامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنّة ، المفسّر والمحدّث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدّثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيّدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنّه هو السميع العليم .

آمين



بقلم

عبد الله سراج الدين



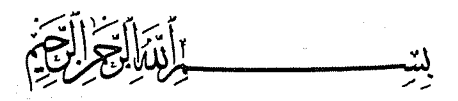
الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

مؤسسة

الشام للطباعة والتجليد

دمشق - هاتف: ٢٢٢٤٥٢٩ - ٢٢٢٢ - ص.ب ٢٥١٨٩

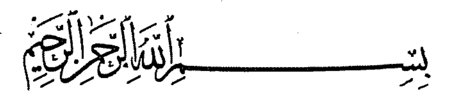


سورة الإنسان

وتسمىٰ سورة الدهر ، والأبرار ، والأمشاج ، وهلْ أتىٰ .

وهي سورة مكية عند الجمهور ، وقال مجاهد وقتادة : مدنية كلها[1] .

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ﴾ السجدة و﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ .



﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه :

الأول : في هذه الآية إقامة الله تعالى الحجة القاطعة على الإنسان ، فيها إلزامه بالاعتراف والإقرار ؛ بأنَّ الله تعالى هو حقٌّ واجب

---

(١) انظر تفسير الآلوسي وغيره .

الوجـود ، وأنّـه سبحانـه هو رب العـالمين ، الذي خلق الإنسـان وخلق جميع الأكوان وحده لا شريك له .

وقد جاء ذلك على طريق الاستفهام التقريري[1] ، الذي فيه الإفحام للمُنْكِر والجاحد .

وبيان ذلك : أنَّ كل إنسان هو يُقرُّ ويَعترف ويَعلم أنَّه قبل خلقه ووجوده الكياني ؛ لم يكن شيئاً مذكوراً ـ أي : ما كان شيئاً يُذكر ، ويوصف بأنه إنسان ، وأنَّه ذو بيان ، وأنَّه حَيٌّ ، وسميع ، وبصير ، ومتكلم إلى ما هنالك من الأحوال والصفات والأفعال ـ إذاً مَنِ الذي نقله من حال العدم إلى عالم الوجود ، فخلقه وَأَوْجَده ، وصيَّره إنساناً مذكوراً بصفاته وأفعاله وأقواله؟ ومَنِ الذي رجَّح وجوده على عدمه؟

فإنَّ العدم والوجود بالنسبة للمُمْكن وجوده هو على حَدٍّ سواء ، مثل كفتي الميزان المعتدل ، فإنَّه لا يمكن أَنْ تترجح إحدى كفتي الميزان على الأخرى إلاَّ بمرجِّح مِنْ وضع شيء ثقيل فيها ، أو ضغطة هواء ، أو نحو ذلك ، فإنَّ التَّرجُّح بلا مُرجِّح هو أمر باطل عقلاً .

فَمَنِ الذي رَجَّح وجود الإنسان على عدمه ، فأوجده وخلقه ، وطوَّره وصوَّره؟

لا يمكن أنْ يكون المرجح هو من المخلوقات ؛ فإنَّها مثله ،

---

(١) والاستفهام التقريري يدل على معنى : قد ، التي هي للتحقيق كما هو مبين في موضعه من كتب اللغة العربية .

ولا يمكن أَنْ يكون المرجح هو نفسه؛ لأنَّه كان معدوماً فكيف يُتصور أنْ يعطي الوجود لنفسه؟

إذاً لا بُدَّ أنْ ينتهي أمْر ذلك إلى إثبات وجود واجب الوجود ، الذي هو خالق غير مخلوق ، وهو الخالق لكل شيء ، فهو القديم الذي لا أول له ، والباقي الذي لا آخر له ، أَلَا وهو الله رب العالمين الإلّه الحقّ ، واجب الوجود ، الخالق البارىء المصوِّر وحده لا شريك له .

ولذلك جاء الجواب : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ .

الوجه الثاني : في هذه الآية الكريمة : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فيها يقيم الله تعالى الحجة القاطعة على أنه سبحانه قادر على إعادة الخلائق بعد موتهم ، وأنَّه لا يعجزه ذلك ، فإنَّ الذي أوْجدها بعد أَنْ لم تكن كيف يَعجز عن إعادتها وإحيائها بعد موتها؟ قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ .

وقد فصلت الكلام ، وبسطت الأدلة على الإعادة والحشر ، وحَقِّيَّةِ اليوم الآخر في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه ينفعك الله تعالى إن شاء الله تعالى .

الوجه الثالث : في هذه الآية الكريمة ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ فيها بيان أَنَّ جميع حجج القرآن الكريم وبيِّناته التي يأتي بها في مختلف القضايا والمواضيع : هي حجج قاطعة وبيِّنات ساطعة ، تفحِم المنكر وتلزمه بالإقرار والاعتراف بما

جاءت به قطعاً بلا ريب ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ ـ أي : القرآن ـ ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، فقد أمر الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُجاهد الكفار بالقرآن ـ أي : ببيناته وحججه البالغة ـ فلولا أَنَّ سيف حجج القرآن الكريم قاطع باتر لَمَا أمره الله تعالى بذلك ، فإنَّ حجج الله تعالى هي الحجج البالغة ، وبيناته هي البينات الدامغة ، لا تُرَدُّ ولا تُـنقَض .

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وقد فصَّلتُ الكلام حول هذه الآية الكريمة ، وغيرها من الآيات الكريمة في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان) فارجع إليه تجد ما ينفعك إنْ شاء الله تعالى .

الوجه الرابع : قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ الآية .

الحين هو : مدة محدودة مِنَ الزمان ، شاملة للكثير والقليل .

وأما الدهر فهو : الزمان الممتد الغير محدود ، ويَـقَع على مدة العالم جميعها ـ أي : مِنْ مَبْدئه إلى انقضائه ـ ويُطلق على كل زمان طويل غير معين .

وأما الزمان فهو: عامٌّ للكلِّ ـ فإنَّ الزمان يطلق على المدة القليلة، والمدة الكثيرة[1].

والإنسان المراد به هنا الجنس، وسُمِّي الإنسان إنساناً لأنسه، فإنَّ المادة تدل على الإيناس، وهو: الرؤية والإحساس، قال الله تعالى مخبراً عن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ أي: أبصر ورأى ناراً.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ الآية، والمعنى: فإنْ رأيتم وأَحْسَسْتم مِنْ تصرفاتهم بالأموال؛ ومعاملاتهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم.

ولذلك قيل:

وما سُمِّي الإنسان إلا لأنسه ... وما القلب إلا أنه يتقلَّب

فالناس مرئيون ومحسوسون، ويقابلهم الجنُّ وهم أخفياء لا يُروْن إلا إذا تمثلوا[2].

فهناك عالم الإنس، وهناك عالم الجن، كما جاء ذلك في الآيات القرآنية.

---

(١) انظر تفسير (روح المعاني) وغيره.

(٢) وقد بينت ذلك في كتاب: (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) وفيه بحث حول عالم الجن.

قوله تعالى:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لَما بين سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أن الإنسان قد أتى عليه حين مِنَ الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، وذلك باعتراف الإنسان وإقراره؛ إذاً مَن الذي خلقه وجعله شيئاً مذكوراً؟ نَعَم جاء الجواب القاطع: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الآية.

والمعنى: أنَّ الذي خلقه هو الله تعالى وحده، وهو رب العالمين.

وجيء بعنوان الكبرياء والعظمة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا﴾ وذلك لعظمة قدرته وإرادته، وسعة علمه وحكمته، واتصافه سبحانه بصفات الكمالات التي لا تتناهى، والتي لا تُعدّ ولا تحصى، وأسمائه الحسنى التي لا تحدُّ ولا تستقصىٰ.

فحُقَّ له جل وعلا أَنْ يُعظِّم نفسه، ويُمَجِّد نفسه، ويحمد نفسه، ويثني على نفسه سبحانه وتعالى.

جاء في الحديث، عن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في آخر وتره: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ

بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قال في (التيسير): رواه أصحاب السنن.

وروى الإمام أحمد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر:

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هكذا بيده يُحركها: يقبل بها ويُدبر ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «يُمجِّد الربُّ نفسه: أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملِك ، أنا العزيز ، أنا الكريم».

قال ابن عمر رضي الله عنهما: فَرَجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قُلنا : لَيخرنَّ ـ أي : لَيقعنَّ ويسقطنَّ ـ به صلى الله عليه وآله وسلم.

نعم: إنَّ اهتزاز المنبر ورجفه هو من تأثره وخشوعه بوعظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو سبحانه ذو الكبرياء والعظمة وحده ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصفه بذلك في مواضع متعددة:

روىٰ البيهقي وغيره ، عن حذيفة رضي الله عنه ، أنَّه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ يعني : صلاة الليل ـ فلما كبَّر قال: «الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة» الحديث.

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: (قمت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يَمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ.

قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه صلى الله عليه وآله وسلم: «سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة».

ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة) رواه البيهقي في (الأسماء والصفات).

وعن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أصبح قال: «أصبحنا وأصبح الملك لله عز وجلَّ، والحمد لله، والكبرياء لله، والعظمه لله، والخلق والأمر؛ والليل والنهار؛ وما سكن فيهما لله عز وجل.

اللهم اجعل أوَّل هذه النهار صلاحاً، وأوْسطه نجاحاً، وآخره فلاحاً يا أرحم الراحمين» رواه ابن السني وغيره.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلطة، والمراد بذلك مجموع ماء الرجل وماء المرأة، وامتزاجهما ببعضهما.

وأمشاج جمع: مَشيج، مثل: شهيد وأشهاد، أَو جمع: مَشَج ـ بفتحتين ـ: كسبب وأسباب، أَوْ جمع: مَشِج ـ بفتح فكسر ـ نحو

كتِف وأكتاف ، يُقال : مشجتُ الشيء إذا خلطته ومزجته ، كما في (روح المعاني) وغيره .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعدُ من طَور إلى طَور ، وحال إلى حال ، وكون إلى كون ، وهكذا . ا هـ .

يعني : أَنَّ النطفة الأمشاج تصير عَلقة ، ثم مُضغة وهكذا إلى تمام خلقها ، ونفخ الروح فيها .

وفي قوله سبحانه : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ بيان عظمة قدرته ، وسعة علمه ، فهو سبحانه خلق هذا الإنسان الذي هو ذو عقل وبيان وفكر وتبيان ، خلقه من تلك النطفة .

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ .

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلك الأبعاد والمدة التي بين كونه نطفة ، ثم كونه علقة ، ثم كونه مضغة ، وبَيَّن الوقت الذي تُنفخ فيه الروح .

روى الشيخان، عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو الصادق المصدوق ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أُمِّه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم

يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقيٌّ أو سعيد» الحديث.

فَبين صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الحديث أَنَّ الروح تنفخ في الحمل بعد أربعة أشهر ـ أي : على تمام أربعة أشهر ـ وقد جاء ذلك صريحاً عن الصحابة رضي الله عنهم ، ومنهم سيدنا علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم.

فما تجده المرأة الحامل من حركة قبل تمام أربعة أشهر فليست تلك الحركة بسبب الحياة الروحية ، وإنَّما هي حركة ناشئة عن حياة النموّ ، كحركة النبات حين ينمو ، فليس فيه حياة روحية وإنما فيه حياة النموِّ ، فإن الحياة هي أنواع متعددة ، وكل واحدة لها آثارها ، كما بينت ذلك مفصلاً مع الأدلة في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

الوجه الثالث : قوله تعالى: ﴿ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾.

والمعنى: نريد أن نختبره ، فالمراد بالابتلاء هنا الاختبار ـ أي: يريد سبحانه أن يختبر الإنسان بالتكاليف الشرعية ، التي فيها الأوامر الإلّهية ، والأحكام الربانية ، المتوقف عليها سعادة الإنسان وفلاحه ونجاحه في الدنيا والآخرة.

﴿ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴾ فأعطاه الله تعالى السمع والبصر ـ أي: والعقل ـ وما هنالك مِنَ المدارك والصفات: القدرة والإرادة ، والاختيار ، ليتمكن بذلك من القيام بالتكاليف الإلّهية : ائتماراً بالأوامر ، وانتهاءً عن المناهي. . وهكذا.

فلم يخلق الله تعالى الإنسان ويتركه سُدىً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي: مهملاً بلا أمر ونهي وما في ذلك سعادته وصلاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة.

ولم يخلق الله تعالى الإنسان عبثاً ـ أي: بلا حكمة ـ قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾.

فهو سبحانه الربُّ الحقُّ، والملك الحق، وهو العليم الحكيم، ومِنْ حكمته أن يرسل إلى عباده رسلاً، وينزل عليهم كتباً، فيها إرشادات وتوجيهات وتعاليم، فيها فلاحهم وصلاحهم، وسعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وفيها الأوامر الإلٰهية التي تدلهم على كل خير، وفيها المناهي التي فيها تحذير من الوقوع في الفساد والشر: حالاً ومآلاً، وفيها بيان المسؤولية والمحاسبة، والجزاء عما يعمله الإنسان من خير أو شر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

المراد بالهدي هنا هدي البيان والدلالة، والسبيل هو الطريق.

والمعنى: أَنَّ الله تعالى بيَّن للإنسان طريق الحق والرشاد، الذي فيه خير العباد والبلاد، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ ﴾ ـ أي: قل للناس يا رسول الله ـ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ

بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ الآية ـ اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وهذا السبيل هو الصراط المستقيم ، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وهذا الهدي للإنسان الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ هو بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم ، وإنزال الكتب الإلٰهية عليهم ، وإنزال الوحي إليهم ، ليبينوا للناس ما أُنزل إليهم من ربهم ، وهذا الهدي ـ وهو هدي البيان والدلالة ـ الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ هذا الهدي للعباد قد أوجبه تعالى على نفسه فضلاً ورحمة منه ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فأوجب على نفسه ذلك جل وعلا تفضلاً وتكرماً ـ بواسطة إرسال الرسل صلوات الله تعالى عليهم ـ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

فمنذ أهبط الله تعالى البشرية إلى الأرض تعهَّدَهم بالهدي إلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ ـ أي بواسطة رسله سبحانه ـ ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كما في سورة البقرة.

فجاءت رسل الله تعالى يُبيِّنون للناس ، ويدلُّونهم على طريق الحقِّ والسَّداد ، وكل ما فيه خير العباد والبلاد ، ويأتونهم بالآيات البينات ، آيات الله تعالى المتلوَّة التدوينية ، النازلة من عند الله تعالى ، ويأتونهم بالآيات التكوينية وهي المعجزات الخارقة للعادات ، التي أجراها الله تعالى على أيديهم ، تصديقاً وتأييداً لهم ، ولإقامة حجج الله تعالى المشهودة المرئية؛ مع الحجج العقلية القاطعة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على حقية ما جاؤوا به من عند الله تعالىٰ.

فموقف الإنسان بعد ذلك كله هو ما بين مؤمن بذلك ، شاكر لنعمة الله تعالى عليه؛ بقلبه وعمله وقوله ، وما بين كفور منكر جاحد؛ تكبراً وعناداً.

كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1] .

وَمِنْ جملة ما جاء في هدي البيان والدلالة ، الذي هو حجة الله تعالى على الكافرين والجاحدين ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ ﴾ ـ أي : دللناهم وَبيَّنا لهم بواسطة رسولهم صالح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ .

وقد تكلمت مفصلاً على أنواع الهدي في تفسير (سورة الفاتحة) وفي مواضع متفرقة من كتبي حسب المناسبة في ذلك .

---

(١) شاكراً وكفوراً: منصوبان على الحال من مفعول هديناه ، كما في تفسير (روح المعاني) و(تفسير) ابن كثير وغيرهما .

بيان أن خير الهدي هديُ سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعلن ذلك في خطبه صلى الله عليه وآله وسلم:

فعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمرَّت عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، كأنَّه منذر جيش يقول: صَبَّحكم ومسَّاكم، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ويَقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى.

ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَّا بعد: فإنَّ خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة».

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أَوْلى بكل مؤمنٍ من نفسه: مَنْ تركَ مالاً فلأهله، ومَنْ ترك دَيناً أو ضياعاً ـ أي: عيالاً فقراء ـ فإليَّ وعليَّ» أي: فهو يتكفل بذلك صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الحافظ المنذري: رواه مسلم، وابن ماجه وغيرهما.

فالهدي المحمدي الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم هو فوق كل هدي.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ .

وقد روى الإمام أحمد في (المسند) الحديث المتقدم ولفظه كما يلي :

عن جابر رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما بعد: فإنَّ أَصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وإنَّ أفضل الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة».

ثم يرفع صوته؛ وتحمرُّ وجنتاه؛ ويَشتدُّ غضبه إذا ذكر الساعة كأنه منذر جيش قال ـ جابر رضي الله عنه ـ ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أتتكم الساعة ، بُعثتُ أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى.

«صبَّحتكم الساعة ومَسَّتْكم ، مَنْ ترك مالاً فلأهله ، ومَنْ ترك دَيناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ» قال : والضياع يعني به وُلْده المساكين. ا هـ أي: أولاده المساكين.

فخير الهدي وأفضل الهدي هو هدي سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ولذلك يجب على كل مسلم ومسلمة أنْ يَعلم كُلُّ واحد منهما أنَّه مسؤول عن موقفه تُجاه هذا الهدي الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، هل هو مِمَّن اتبع هديه صلى الله عليه وآله وسلم ، وسلك سبيله الذي دعا إليه ، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟

﴿إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أَمْ أَنَّه كان في الدنيا مُعرضاً عن هذا الهدي المحمدي وبيانه وبيِّناته؟

يُسأل عن ذلك أَوَّلاً في القبر الذي هو أوّل برزخ مِنْ برازخ الآخرة، سُؤالاً إجمالياً، ثم يُسأل عن ذلك سُؤالاً تفصيلياً يوم القيامة؛ في عالم السؤال.

فعليك أيها العاقل أَنْ تهتدي بهديه صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وإياك أَنْ تُعرض عن هديه صلى الله عليه وآله وسلم، وتتبع الأهواء، والآراء الفاسدة، فتضل وتشقىٰ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ الآية.

روىٰ الشيخان وغيرهما، عن أسماء رضي الله عنها، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيء لم أكن أُريتهُ إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، فأوحيَ إليَّ ـ أي: أوحى الله تعالى إليَّ ـ أَنَّكم تُفتنون في قبوركم مِثل أو قريباً ـ شك الراوي عن أسماء رضي الله عنها ـ مِنْ فتنة الدجال، يقال ـ أي: لأحدكم ـ ما علمك بهذا الرجل؟ ـ أي: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فأما المؤمن أو الموقن ـ شك الراوي عن أسماء ـ فيقول هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأَجبناه واتبعناه، هو محمد هو محمد هو محمد ـ ثلاثاً.

فيقال: نَمْ صالحاً قد علمنا إن كنتَ ـ أي: إنه كنت ـ لموقناً به» أي: يعلمون ذلك لأَنَّ أعماله كانت تُرفع إلى الله تعالى، وكلامه

الطيب يصعد إليه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ الآية ، وإنَّ أطيب الكلم الذي به يَطيب الكلم هو الكلمة الطيبة لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ الآية.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأما المنافق أو المرتاب ـ الشك من الراوي عن أسماء ـ فيقول: لا أدري سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته».

وروىٰ الشيخان وغيرهما ، واللفظ للبخاري ، عن أنس رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره ، وتولَّى عنه أصحابه؛ وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ـ أتاه ملكان ، فيقعدانه فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؟

فيقول: أشهد أنَّه عبد الله ورسوله.

فيقال له: انظر إلى مقعدك مِن النار أبدلك الله تعالى به مقعداً من الجنة».

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «فيراهما جميعاً».

فيرىٰ المؤمن مَقعده من الجنة ليفرح ويستبشر ، ويطمئن قلبه بأنه من أهل الجنة ، ويرى مقعده من النار لِيشكر الله تعالى على نعمة الإيمان ، وأن الله تعالى نجَّاه من الكفر وعذاب الكفر ، بحيث لَوْ لَمْ يُؤمن لكان من أهل النار ، قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

وجاء في رواية لمسلم ، عن قتادة : «وذكر لنا أَنَّه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، ويُملأ عليه خضراً إلى يوم يُبعثون» .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «وأما الكافر أو المنافق ـ وفي رواية : «وأما الكافر أو المرتاب» ـ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس فيه .

فيقال له : لا دَريتَ ولا تليتَ ، ثم يُضرب بمطرقة مِنْ حديد بَين أُذنيه ، فيصيح صَيحة يَسمعها مَنْ يليه إلا الثقلين» يعني : الإنس والجن؛ إلا مَنْ كشف الله تعالى عن ذلك له .

وروى الترمذي وحسنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إذا قُبِرَ الميت ، أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟

فيقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأَنَّ محمداً عبده ورسوله .

فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ـ ثم يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً ، في سبعين ذراعاً ، ثم يُنوَّر له فيه .

فيقول ـ العبد المؤمن ـ : أرجع إلى أهلي فَأُخبرهم .

فيقولان : نَمْ نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أَحب أهله إليه ، حتى يبعثه الله تعالى مِن مضجعه ذلك .

وإن كان منافقاً قال : سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت مثْله ، لا أدري» : أي : كان في الدنيا يقول ذلك بلسانه ، لا يعتقد ذلك جازماً مِن قلبه ، ولذلك يقول : لا أدري .

«فيقولان: قد كنا نعلم أنَّك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم؛ فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها مُعذَّباً حتى يبعثه الله تعالى مِن مضجعه ذلك» نعوذ بالله العظيم.

فيُسأل عن الشهادتين، ويسأل عنه موقفه تُجاه الهدي الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما تقدم في الحديث أن المؤمن يقول: جاءنا بالبينات والهدى، فأجبناه واتبعناه، اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبأكرميته عليك.

وأما السؤال التفصيلي عن ذلك فهو يوم القيامة.

روى البخاري في الحديث الطويل، عن عَدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ولَيلقيَنَّ اللهَ أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبينه حجاب، ولا ترجمان يُترجم له، فليقولَنَّ: ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغكَ؟ فيقول ـ العبد ـ: بلى.

فيقول سبحانه: ألم أعطك مالاً وأُفضل عليك؟ فيقول: بلى» إلى تمام الحديث كما في (التيسير).

فَيُسْأل العبد عما بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الهدي ـ ماذا عمل به؟

وتفاصيل السؤال يوم القيامة، وأنواع السؤال، مذكور مع الأدلة في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها).

قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى موقف الإنسان أمام الهدي الإلّهي الذي جاءت به الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين ، وبَيَّنَ أَنَّ هناك المؤمن الشاكر ، وأَنَّ هناك الجاحد الكفور ، لَمَّا ذكر ذلك بَيَّن نتيجة وجزاء كلٍّ منهما فقال في الكافر الجاحد: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ ﴾ ، جمع سلسلة يقادون بها ، ويُوَثَّقون بها ، ﴿ وَأَغْلَٰلًا ﴾ أي: في أعناقهم تُشدُّ فيها السلاسل ، فتجمع أيديهم إلى أعناقهم ﴿ وَسَعِيرًا ﴾ أي: ناراً حامية جداً شديدة الاتقاد ، فالله أعتد لهم ذلك ـ أي: أعدَّ وهيَّأ لهم ذلك ـ جزاءً على كفرهم وجحودهم ، بعد أن قامت عليهم الحجة ، وظهرت لهم المحَجَّة ، بسبب الهدي الإلّهي الذي أنزله الله تعالى على الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم ، وقد تكفل سبحانه بذلك كما قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه الآية.

فلا حجة لهم ، ولا عذر لهم ، بعد البيان الإلّهي ، والهدي الذي أنزله على الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين ، وقد أعطاهم الله تعالى الإرادة والاختيار ، والعقل ليعقلوا ويفكروا.

قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

الأبـرار جمع بَـرّ أَوْ بارّ[١].

وفي هذه الآية يُبين سبحانه وتعالى حُسن حال الشاكرين، الذين آمنوا حقاً بعد ما بين سوء حال الكافرين، ووصف الله تعالى المؤمنين الشاكرين بصفة البرِّ لإعلانه سبحانه وإعلامه بما استحقوا به تلك الدرجات العليَّة، والمكرمات السنيَّة، والمراتب الرفيعة، ذلك لأَنهم أبرار، اتصفوا بذلك، وتحققوا بذلك، تحققاً جامعاً لبرِّ الأعمال والأموال والأخلاق والأحوال.

والبِر هو كلمة جامعة للخير، مضادة للشرّ، فالبِرُّ هو قد يطلق على الإيمان وواجباته، لأَنَّ الإيمان جامع لكل خير، مُبْعد عن كل شَرٍّ.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾.

---

(١) قال في: (روح المعاني): والأبرار جمع برّ، أَوْ بار، كشاهد وأشهاد، بناءً على أن فاعلاً يجمع على أفعال.

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ .

فالبَـرُّ هو التقيُّ النقي ، الممتثل جميع ما أمر الله تعالى به ، وأوجبه عليه ، والمنتهي عن جميع ما نهى الله تعالى عنه ، ولذلك قيل : البَرُّ هو المطيع ، المتوسع في فعل الخير .

وقيل : هو المؤدي حقوق الله تعالى ، والموفي بنذره .

وقال الحسن البصري : البَرُّ هو الذي لا يؤذي الذَّرَّ ، ولا يرضى بالشر . اهـ .

وجميع هذه الأوصاف داخلة في عموم التعريف الأول المتقدم .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ .

الكأس كما قال الزجَّاج : الإناء إذا كان فيه الشراب ، وإذا لم يكن فيه الشراب بِأَنْ كان فارغاً لا يسمى كأساً .

وقال الراغب : الكأس هو الإناء بما فيه مِن الشراب .

﴿ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ أي : مُزِجت لهم بشيء من الكافور ـ أي : كافور الجنة ـ .

قال المفسرون : وقد عُلم ما في الكافور مِنَ التبريد ، والرائحة الطيبة ، مع ما يُضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة[١] .

---

(١) انظر تفسير الخطيب وابن كثير و(روح المعاني) .

قوله تعالى:

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾

والمعنى: أَنَّ هذا الذي مُزج للأبرار مِنَ الكافور، هو عين يَشرب بها المقربون من عباد الله صِرْفاً خالصة، فالأبرار يُمزج لهم شرابهم بشيء مِن الكافور حسبما يتحملونه، وأما المقربون فيشربون من عين الكافور الذي في الجنة صِرفاً؛ لقوة تحملهم واستعدادهم لذلك، وقوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾، ولم يقل سبحانه يشرب منها عباد الله، بل قال: ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ فأتى بالباء لتضمين يشرب معنى يُروى، أي: يشربون منها ويمتلئون ريّاً بها.

وقوله تعالى: ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ التفجير هو الإنباع، والمعنى أَنهم يفجرونها حيث شاؤوا، وأين أرادوا في قصورهم، وفي دورهم، وفي مجالسهم وأماكنهم.

وفي هذه الآيات المتقدمة بيان اختلاف مراتب النعيم في الجنة، فإنَّ مرتبة المقربين ودرجتهم هي أرفع مِنْ مرتبة الأبرار، لتفاوت مراتب أعمالهم وعباداتهم في الدنيا.

وهذا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ـ أي: بهجة السرور والفرح بالنعيم ـ ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ ﴾ ـ أي: مزاج الرحيق ـ ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ ـ اسم عَلَم لِعَين معيّنة

في الجنة وماؤها يجري في الهواء[1] ويأتيهم من فوق متسنماً فينصبُّ في أوانيهم ، فيخرج برحيق الأبرار ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ ـ أي : يشربها المقربون صِرفاً خالصاً ، دون أن تُمزج بشيء آخر كما هو في الأبرار ـ فهناك الفوارق بين نعيم المقربين ونعيم الأبرار.

وقد بينت في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) الفارق بين الأبرار وبين المقربين ، وبين أعمال هؤلاء وهؤلاء ، وعباداتهم وقرباتهم ومقاماتهم ، وفصلت الكلام على ذلك مع الأدلة فارجع إليه ينفعك الله تعالى بذلك ، ويشرح صدرك ، وينور قلبك ، ونسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحبه الله تعالى ويرضاه ، ويصحبنا بعنايته ورعايته ، ويتولانا بما تولَّى به عباده الصالحين ـ آمين.

قوله تعالى:

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾

في هذا بيان أوصاف مَنْ تقدم ، وما كان لهم في الدنيا من أعمال صالحة ، وقربات ، وإعانات لعباد الله تعالى المحتاجين.

﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ ﴾ أي : لا يُخلفون إذا نذروا ، بل يُؤدُّون نذورهم وافيه كاملة ، دون بخس ولا نقص.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى : والنذر حقيقته ما أوجبه

(١) انظر تفسير (روح المعاني) وتفسير ابن كثير وغيرهما.

المكلَّف على نفسه من شيء يفعله.

قال: وإن شئتَ قلت في حدِّه ـ أي: تعريف النذر ـ هو: إيجاب المكلف على نفسه من الطاعات ما لو لم يوجبه ـ أي: على نفسه ـ لم يلزمه. اهـ.

وفي قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ ثناء من الله تعالى عليهم، وبيان إيفائهم، وقيامهم بجميع الحقوق التي أوجبها تعالى إيفاءً كاملاً.

وذلك أَنَّ مَنْ أَوْفَىٰ بما أَوْجبه على نفسه؛ كان إيفاؤه بما أوجبه الله تعالى عليه أهمَّ وأحرى، وأولى وأجدر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[1] وهو يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والمخاوف والفزع، ولا يأمن مِنْ ذلك إلاَّ مَنْ أمَّنه الله تعالى ـ اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه دليل على خوفهم الشديد وحذرهم الأكيد مِنْ شر ذلك اليوم، وما يجري فيه

---

(١) أي: منتشراً وممتداً.

من الأهوال والكُربات والمخاوف.

فلما عَظُمَ خوفهم من ذلك اليوم الذي أخبر الله تعالى عنه، وعما يَجري فيه؛ أمَّنهم الله تعالى في ذلك اليوم، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

فبخوفهم حين كانوا في الدنيا أمَّنهم الله تعالى من ذلك في الأخرى وسلَّمهم.

جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يروي عن ربه عز وجلَّ أنَّه قال: «وعزَّتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين: إذا خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة» رواه ابن حبان في (صحيحه).

وقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ في هذا دليل على أنَّ الإيمان بالله تعالى يوجب على المؤمن أنْ يخاف ذلك اليوم وما فيه من العذاب والحساب، والعقاب والعتاب.

قال الله تعالى في مدح المؤمنين الصادقين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾.

فهم يعملون في الدنيا ويتاجرون؛ ولكن لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وما هنالك، ولو كانت التجارة واسعة عظيمة؛ ولكنها لا تلهيهم عن أمور دينهم، لأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال تعالى في صفة المؤمنين الصادقين : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : (سوء الحساب هو أن يحاسبوا فلا تقبل حسناتهم ، ولا تغفر سيئاتهم) أي : لا تقبل حسناتهم لعدم الإخلاص فيها[١] .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ[٢] أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ .

روى الترمذي ، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت : (قلت : يا رسول الله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهم الذي يشربون الخمرَ ويَسرقون)؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون ، ويخافون أنْ لا يُقبل منهم ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾» كذا في : (التيسير) .

---

(١) وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى : سوء الحساب هو المناقشة فيه ، وهو أن يحاسبوا بذنوبهم كلها : صغيرها وكبيرها ، ولا يغفر منها شيء ، وهذا لا يعارض قول ابن عباس رضي الله عنهما فالكل صحيح .

(٢) أي : خائفة مما سيمر عليهم من الحساب ، والسؤال عن أعمالهم ؛ وعن نياتهم ، وصدقهم في ذلك .

ورواه الإمام أحمد ولفظه : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (قلت : يا رسول الله ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل)؟.

قال : «لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل».

قوله تعالى :

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

في هذا بيان كرمهم ، وسخاوة أنفسهم ، وبذلهم ما يحبونهُ ابتغاء وجه الله تعالى ، فقال تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي : يطعمون على حبهم للطعام وشهوتهم له ، فهم يُطعمون ما طاب لهم ولذَّ عندهم من طيب الطعام لا من رذيله ورديئه ، فالضمير في حبه عائد للطعام[1] وهذا نظير قوله تعالى : ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ وقال تعالى : ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

وقال بعضهم : الضمير عائد إلى الله تعالى ـ أي : ويطعمون الطعام على حب الله تعالى خالصاً ، وهذا المعنى هو صحيح ، ولكنه يدخل في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

---

(١) وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ، كما نقله الإمام القرطبي عنهما قالا : (على قِلَّته وحبهم إيَّاه وشهوتهم له). ا هـ.

روى الإمام البيهقي عن نافع قال: مرض عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فاشتهى عنباً أوّل ما جاء العنب، فأرسلتْ صَفِيَّة ـ يعني: امرأته ـ رجلاً فاشترى عنقوداً بدرهم، فاتبع الرسول ـ أي: الذي أرسلته ليشتري عنقوداً ـ اتبعه سائل ـ أي: فقير ـ فلما دخل قال السائل ـ أي: من وراء الباب ـ قال: السائل ـ أي: السائل على الباب ـ.

فقال ابن عمر رضي الله عنهما: أعطوه إياه ـ فأعطوه إياه.

فأرسلتْ ـ صفية زوجته ـ بدرهم آخر فاشترت عنقوداً، فاتبع الرسول ـ الذي أرسلته ليشتري عنقوداً ـ اتبعه السائل، فلما دخل ـ أي: على ابن عمر ـ قال السائل: السائل.

فقال ابن عمر رضي الله عنهما: أعطوه إياه ـ أي: مرة ثانية ـ فأعطوه إياه.

فأرسلت صفية زوجة ابن عمر إلى السائل فقالت: والله إن عُدت لا تصيب منه خيراً أبداً، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به[1].

قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ أي: العبد المملوك، والمعنى أنهم أجواد كِرام، ومن وصفهم إطعام الطعام اللذيذ الطيب المشتهى، يطعمون ذلك للمسكين، واليتيم، والعبد المملوك، مخلصين في عملهم لله تعالى وحده،

---

(١) ولا تتوهمن أَنَّ هذا السائل هو من فقراء الصحابة، وإنما هو من فقراء التابعين، فإنَّ هذه القصة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي أواخر عهد ابن عمر رضي الله عنهما.

دون ريـاء ولا سمعـة ولا مفاخـرة ، ولا يريـدون من ورائـه جـزاءً ولا شكوراً ممن أحسنوا إليه وأطعموه .

قـولـه تـعـالـى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾

والمعنى أنهم يقولون[١] لمن أطعموه : لا نريد منكم مجازاة تكافئوننا بها ، ولا أن تشكرونا عند الناس وتمدحونا وتثنوا علينا .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير : أمَا والله ما قالوا بألسنتهم ، ولكن علم الله تعالى به من قلوبهم ، فأَثنى عليهم به ، ليرغب في ذلك راغب . ا هـ أي : الراغب في رضاء الله تعالى وثوابه ، ولكي يقتدي بهم ، ويرغب العاملون والمطعمون فيما رَغِبَ به أولئك المخلصون ، الذين شهد الله تعالى بصدقهم ، وقوة رغبتهم في ابتغاء رضوان الله تعالى وفضله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ الآية ، في هذه الآية الكريمة دليل على عِظم فضل إطعام الطعام مع الإخلاص فيه لله تعالى ، وسواء في ذلك أن يطعمهم في بيته ، أو يرسل الطعام إلى بيوتهم ، فإنَّ المقصود هو الإطعام .

روى الشيخان وغيرهما ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) فجملة ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ ﴾ موضعها الحال، على تقدير: يقولون لهم، أو قائلين لهم، كما في (روح المعاني) وغيره .

أيُّ الإسلام خير ـ يعني: أي: أعمال الإسلام خير؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفتَ ومَنْ لم تعرف».

كما أن إطعام الطعام سبب عظيم في دخول الجنة بسلام:

جاء في الحديث، عن أبي يوسف عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يا أيها الناس: أفشوا السلام؛ وأطعموا الطعام؛ وصلُوا الأرحام؛ وصَلُّوا بالليل والناس نيام: تدخلوا الجنة بسلام» رواه الترمذي وغيره.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اعبدوا الرحمن، وأفشوا السلام؛ وأطعموا الطعام تدخلوا الجنان» قال في (الترغيب): رواه الترمذي وصححه، وابن حبان واللفظ له.

كما أَنَّ إطعام الطعام للمحتاجين من أعظم أسباب رفعة الدرجات:

جاء في الحديث، عن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال: «**ثلاث كفارات، وثلاثٌ درجات، وثلاثٌ منجيات، وثلاث مُهلكات:**

فَأما الكفارات ـ أي: كفارات الذنوب والخطايا ـ فإسباغ الوضوء في السَّبَرات ـ أي: شدة البرد ـ وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجماعات ـ أي: لأجل الصلاة بالجماعة ـ.

وأمَّا **الدرجات**: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام.

وأما **المُنجيات**: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد ـ أي: التوسط ـ في الفقر والغِنىٰ، وخشية الله تعالى في السِّرِّ والعلانية.

وأما **المهلكات**: فُشحٌّ مُطاع، وهوىً متَّبع» ـ أي: يتبع هوى نفسه التي تأمره بالسوء، ولا يتبع أوامر الله تعالى التي شرعها سبحانه وتعالى.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإعجاب المرء بنفسه» قال في (الترغيب): رواه البزار والبيهقي.

فلا تُقصِّر أيها الأخ المؤمن في إرسال الطعام الشهي إلى بيوت المساكين واليتامى والمحتاجين، ولو أَن تشتري الطعام من السوق وترسله إليهم.

ومن **فضائل إطعام الجائع** أَنَّ المطْعِمَ يكون في ظل عرش الله تعالى يوم لا ظِلَّ إلاَّ ظله:

فعن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ثلاث مَنْ كنَّ فيه أظلَّه الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: الوضوء على المكاره، والمشي إلى المساجد في الظُّلم، وإطعام الطعام»[1].

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) قال في الفتح: رواه أبو الشيخ في (الثواب)، والأصبهاني في (الترغيب). اهـ وهو مذكور في (الجامع الصغير) بهذا اللفظ.

أنَّه قال: «ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة: **وَاصِل الرحم**: يزيد الله تعالى في رزقه، ويمدُّ له في أجله، **وامرأة مات زوجها** وترك عليها أيتاماً صغاراً فقالت: لا أتزوج؛ أقيم على أيتامي حتى يموتوا أو يغنيهم الله تعالى، **وعبد صنع طعاماً** فأضاف ضيفه، وأحسن نفقته، فدعا عليه ـ أي: على الطعام ـ اليتيم والمسكين: فأطعمهم لوجه الله عز وجل»[1].

قوله تعالى:

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العبوس: الضيِّق، والقمطرير: الطويل ـ كذا في تفسير القرطبي وابن كثير، ثم قال القرطبي: وقيل القمطرير: الشديد، تقول العرب: يوم قمطرير وقماطِر وعصيب بمعنى ـ أي: بمعنى واحد ـ واقمطرَّ إذا اشتد، ونقل عن الفراء أنه قال: القمطرير أشد ما يكون من الأيام، وأطوله في البلاء. إلخ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ أي: نخاف من ربنا يوماً عظيم الأهوال والشدائد والضيق، طويل الامتداد والمَدَى، فراحوا يبذلون جُهدهم في تحصيل القربات، والأعمال الصالحات ليقيهم الله تعالى شرَّ ذلك اليوم، وليخرجوا مِن تلك الكربات والشدائد بسلام من الله تعالى وأمان، ولذلك بَشَّرَهم الله

---

(١) رواه أبو الشيخ الأصبهاني، والديلمي في (الفردوس) كما في (الفتح الكبير).

تعالى بقوله: ﴿فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ الآية كما سيأتي.

فيوم القيامة هو يوم عظيم، وخطره جسيم، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

روى الشيخان واللفظ للبخاري، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه ـ أي: عرقه ـ إلى أنصاف أذنيه».

ورواه الإمام أحمد ولفظه: «يقوم الناس لرب العالمين لعظمة الرحمن عز وجلَّ يوم القيامة حتى إن العَرقَ ليلجم الرجال ـ أي: الأقوياء الأشداء ـ إلى أنصاف آذانهم».

وسبب هذا العرق الشديد شدة الحرّ ودنوُّ الشمس منهم.

روى الإمام مسلم، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تُدنىٰ الشمس ـ أي: تُقرَّب ـ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل».

قال: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العَرَق:

فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حُقْويه ـ تثنية حَقْو، وهو موضع شد الإزار ـ ومنهم من يُلجمه إلجاماً» وأشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى فيه).

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يسأل الله تعالى الأمن يوم الوعيد ، وفي هذا تعليم لأمته صلى الله عليه وآله وسلم أن يكثروا من ذلك.

روى الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ـ في دعاء له طويل ـ بعد فراغه من صلاة قيام الليل ، وفيه :

«اللهم يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركَّع السُّجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد» الحديث[1].

فمن خاف الله تعالى ، وسلك الطريق الذي شرعه الله تعالى ، وسأل الله تعالى الأمان يوم الوعيد ـ أمَّنه الله تعالى؛ كما تقدم في الحديث الذي رواه ابن حبان في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فيما يروي عن ربه جل وعلا أنه قال : «وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين : إذا خافني في الدنيا أمَّنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة».

وقد أخبر الله تعالى أَنَّ المتقين تُزلف لهم الجنة في مواقف الآخرة :

قال الله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ .

---

(١) وقد ذكرته بتمامه في كتاب (الدعاء) فارجع إليه .

فالجنة تُزلَف للمتقين ـ أي: تُقرَّب إليهم في مواقف الآخرة، بحيث يرونها قريبة منهم، ويكونون على مشهد منها لكي يستبشروا، ويبتهجوا، ويُسرُّوا، وتطمئن قلوبهم بأنهم من أهلها، وبذلك يذهب عنهم الهمُّ والغم، والضيق، ويأمنون من كُربات الموقف وشدائده.

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك الحبيب الذي مَنْ توسَّل به إليك لا يخيب صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى:

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي: أمنهم مِنْ شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافون منه في الدنيا، ويحذرون أهواله وكرباته وشدائده.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: لقَّاهم في وجوههم جمالاً ونوراً، وفي قلوبهم فرحاً وسروراً، فأكمل لهم النعيم الظاهر والباطن: نضارة الوجه وسرور القلب، فلم يُصبهم في ذلك اليوم العَبوس القمطرير؛ لم يصبهم شيء من العبوس، ولا من الشدائد والمخاوف والمتالف.

جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أوَّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ـ أي: على صفة القمر في نوره ليلة البدرِ ـ ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّيٍّ في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك ـ أي: عرقهم المسك ـ ومجامرهم الألوَّة الألنجوج عود الطيب، أزواجهم الحور العين، على خُلُق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء».

رواه الشيخان، والترمذي كما في (التيسير).

قال: والألوَّة والألنجوج مِنْ أسماء العود الذي يُتبخَّر به. ا هـ.

ومِنَ المعلوم أَنَّ القمر والكواكب تستمد أنوارها مِنْ نور الشمس التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ وأما الذين يدخلون الجنة على صورة القمر[1] أو على صورة الكواكب[2] وما هنالك فإنهم يستمدون أنوارهم من الشمس المحمدية، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

فهناك الشمس المحمديَّة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

وهناك شمس السماء الفلكية، وقد وصفها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾.

---

(١) أي: على صفة القمر في نورانيته.

(٢) أي: على نورانية الكواكب.

وهناك الفوارق الكبيرة بينهما ، فإنَّ شمس السماء هي سراج وهَّاج ، فهي قد تضرُّ بوهجها وإنما يُنتفع منها بنسبة محدودة ، ويُستغنى عنها مُدة مديدة من الزمن ، كما أَنَّ نورها إنَّما يُضيء للبصر فحسب ، فهي تُظهر لبصر العين ما كان محسوساً من الكائنات ، وأمّا الشمس المحمدية فهو السراج المنير صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ومِنَ المعلوم أَنَّ النور لا يُستغنى عنه لا في الليل ولا في النهار ، فالعالَمُ أشدُّ حاجة إلى نور الشمس المحمدية مِنْ حاجتهم إلى نور الشمس السمائية التي تجري في فلكها.

وإنَّ نور السراج المحمدي هو المنير للأرواح والقلوب ، وللعقول والأفكار ، ولجميع المدارك.

وإنَّ الذي يسير بلا نور لا يَهتدي إلى حقيقة الأمور ، بل هو يتخبط في الأوهام والظلمات.

وإنَّ النور المحمدي هو الذي يكشف عن حقيقة الأمور للقلوب والعقول والأفكار.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

والقرآن الكريم هو الذي يبين الحق والحقيقة.

وكما أَنَّ الأبصار العينية لا تنفع صاحبها إلا إذا مشت على شُعاع خارجي؛ كذلك أنوار العقول البشرية لا يَنتفع بها صاحبها إلاَّ إذا مشت على نور السراج المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم ،

وبذلك يهتدي إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وصلاح أمورها ، قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تهتدون إلى ما فيه صلاحكم ونجاحكم ، وسعادتكم في الدنيا والآخرة .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد» صلى الله عليه وآله وسلم .

تذكرة وعبرة

تقدم في الحديث الذي رواه الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم ـ أي الزمرة الثانية ـ على أشد كوكب في السماء إضاءة» الحديث كما تقدم .

فليعتبر العاقل ويفكر ، إذا كان أوَّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ، فما ظنك بقوة نوره صلى الله عليه وآله وسلم ، وشدة ضيائه ، وحسن بهائه ، الذي خصه الله تعالى بأكرم منزلة ، وأرفع مقام ، وهو الفاتح لها ، وهو أَوَّل مَنْ يدخلها ، وقد أمر الله تعالى خازن الجنة أنْ لا يفتح لأحد قبله .

روى الإمامان أحمد ومسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول الخازن: مَنْ أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: ـ الخازن ـ بكَ أُمرتُ ـ أي: بحقك أمرني الله تعالى ـ أَنْ لا أفتح لأحدٍ قبلك» .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يفتحها ، وهو أَوَّلُ مَنْ يدخلها ،

وجميع أهل الجنة إنما يدخلون الجنة مِنْ ورائه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولذلك يدخلونها مُفَتَّحةً لهم الأبواب ، نعم لقد فتحها الفاتح الأوَّل صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي خصَّه الله تعالى بأوَّليات المعالي[١] .

قال الله تعالى : ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ ـ أي جماعاتٍ بعد جماعات ـ ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ ـ أي : والحال قد فُتحت أبوابها مِن قبل أنْ يجيئوا إليها ـ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ ـ اللهم اجعلنا منهم .

فقوله تعالى : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ الجملة حالية والواو للحال أي : وقد فتحت أبوابها من قَبْلُ ، فتحها الفاتح الأول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا معهم أجمعين .

وجاء في الحديث عن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الجنة حُرمَت على الأنبياء حتى أدخلها ، وحرِّمت على الأمم حتى تدخلها أُمَّتي» رواه الطبراني بسند حسن[٢] .

---

(١) انظر كتاب (الشهادتين) وقد ذكرت جملةً موجزة مِنْ أوليات المعالي التي خصه الله تعالى بها .

(٢) انظر (الخصائص) و(الفتح الكبير) .

قوله تعالى:

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾ أي: بصبرهم على عبادته سبحانه، وأداء أوامره التي أمرهم الله تعالى بها، دائبين متمسكين بها، ودائمين على أدائها كما أمرهم الله تعالى، محافظين عليها في أوقاتها المعينة لها، صابرين، ممسكين أنفسهم على القيام بها؛ بلا ترك لها ولا كسل.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ أي: وأنت أيها المكلَّف اصطبر على الصلاة في أوقاتها، وتأديتها بخشوعك فيها، وحضور قلبك، وهذا الصبر على فعل المأمورات هو أوّل مراتب الصبر، وهو أوّل ما يَدخل في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾ الآية وهذا هو النوع الأول من الصبر.

كما أَنَّ الآية تشمل صبرهم على ترك المنهيات، واجتناب المحرمات، مُمسكين أنفسهم عن الوقوع فيها، سواء في ذلك المحرمات العملية، والمحرمات القولية، فهم يُمسكون أنفسهم عن تعاطي المحرمات والذنوب والمعاصي، ويمسكون عن الوقوع في الغيبة والنميمة، والكذب، والغشّ، والمكر، والخديعة، إلى جميع ما هنالك من المناهي والمحرمات، وهذا هو النوع الثاني من الصبر، وهو الصبر عن المنهيات والمحرمات.

وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ ﴾ يشمل النوع الثالث أيضاً من الصبر ، وهو الصبر على البلاء والمصائب ، التي قد تصيب الإنسان ، فيصبرون ولا يجزعون ، ولا يضجُّون ، ولكن يلجأون إلى الله تعالى أَنْ يعافيهم منها ، وأن يصرفها عنهم ، إنَّه سميع عليم ، وقريب مجيب .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ أي : ألبسة الحرير قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ أي : جازاهم بصبرهم على ما تقدم جَنَّةً ـ أي : بأن أدخلهم جنةَ المأوى ، التي أعدها الله تعالى منذ خلقها لعباده المتقين ، وجعل فيها أنواعاً من النعيم المقيم ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

فهي واسعة كل السعة ، عرضها ـ أي : سَعَتها ـ السماوات والأرض ـ أي : سماوات ذلك العالم وأرضه ـ كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ .

فأرض الآخرة وسماواتها أوسع بكثير من أرض الدنيا وسماواتها ، فإن أرض الدنيا وسعتها سوفُ تُحشر في أرض المحشر لتؤدِّي شهادتها على مَنْ عمل على ظهرها خيراً أو شراً .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم في معنى الآية : «هو أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها ، تقول : عَمِلتَ يومَ كذا : كذا وكذا ـ فهذه أخبارها» .

وقد بينت ذلك في كتاب: (الإيمان بعوالم الآخرة) مفصلاً.

ويجب الاعتقاد بأن الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين هي مخلوقة، أعدَّها الله تعالى منذ خلقها للمتقين، وهم الممتثلون أوامره سبحانه والمجتنبون ما نهى عنه.

جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما خلق الله تعالى الجنة قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلاَّ دخلها فحفَّها ـ الله تعالى ـ بالمكاره[1].

ثم قال: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد.

ولما خلق ـ الله ـ النار قال لجبريل: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها فحفَّها بالشهوات.

ثم قال ـ الله تعالى ـ: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها، فلما رجع قال: وعزتك لقد خشيتُ أن

---

(١) أي: التكاليف الشرعية المشتملة على الأوامر والمناهي، فإنْ النفوس الأمَّارة بالسوء تكرهها، وتستثقلها، فتعرض عنها، وتميل إلى الشهوات المحرمة، وهوى النفس قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

لا يبقى أحد إلاَّ دخلها» أخرجه أصحاب السنن ، وصححه الترمذي كما في (تيسير الوصول).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات» قال في (تيسير الوصول): أخرجه مسلم ، والترمذي ، قال : وللشيخين عن أبي هريرة مثله وقال: «حُجبت» بدل «حُفَّت» في الموضعين. ا هـ.

فالجنة هي مخلوقة وموجودة الآن ، وقد دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج ، ورأى ما فيها كما جاء في رواية مسلم ، قال صلى الله عليه وآله وسلم «ثمَّ أُدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذ ترابها المسك»[1].

ومن الأدلة على وجود الجنة والنار حديث شهداء أحد:

روى أبو داود ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأصحابه: «إنه لما أُصيب إخوانكم بأحد ـ أي: استشهدوا في غزوة أحد ـ جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، تأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل مِنْ ذهب معلقة في ظل العرش.

فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا ـ أي لبعضهم ـ: مَنْ يبلغ عنا إخواننا أننا أحياء في الجنة نرزق ؛ لئلا يزهدوا في الجنة ، ولا ينكلوا عند الحرب.

---

(١) الجنابذ جمع جُنبذة ، بضم الجيم وهي القبة. ا هـ كما في (النهاية).

فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم.

فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾» الآيات، كما في (تيسير الوصول).

وسيأتي تفصيل الأدلة على وجود الجنة والنار إن شاءَ الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾

الأرائك جمع أريكة وهو: سرير منجَّد مزيَّن في قبة أو بيت، فإذا لم يكن سرير فهو حَجَلة.

قال في (روح المعاني): والأرائك جمع أريكة، وهي السرير في الحَجَلة، من دونه ستر، ولا يسمى مفرداً أريكة ـ أي: لا يسمى السرير دون أن يكون في الحَجَلة أريكة ـ.

ثم قال: وقيل كل ما اتكىء عليه من سرير أو فراش أو منصَّة. اهـ أي: كلٌّ من ذلك يسمى أريكة.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ فهم لا يجدون فيها حرّاً ولا برداً؛ كما كانوا عليه في الدنيا، فهم في نعيم دائم، لا يشوبه كدر، ولا همٌّ، ولا نصب، ولا خوف، ولا حزن، ولا حَرَّ ولا قَر ـ اللهم اجعلنا منهم بجاه رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

والمعنى: أَنَّ ظلال أشجار الجنة دانية عليهم، تظللهم بخضارها ونضارها، وقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ القطوف جمع قِطف، وهو ما يُقطف كالعنقود وغيره من الثمار، وإنَّ الله تعالى قد ذلَّل لهم ثمار الجنة، فهم يقطِفونها متىٰ شاؤوا وحيث شاؤوا وكيف شاؤوا: مضَّجعين، أو قاعدين، أو قائمين، فهي مذللة لهم، منقادة لهم، لا تستعصي عليهم، ولا يحتاجون في قَطفها إلى سِكِّين أو غيره، وذلك لأَنَّ الله تعالى الذي خلقها وأنشأها ـ هو سبحانه وتعالى ـ هو ذللها لهم، ودلَّىٰ ثمار الجنة لهم، كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبَيَّنَ ذلك.

جاء في الحديث، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خلق الله جنة عدن بيده، وَدَلَّىٰ فيها ثمارها، وشقَّ فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال لها: تكلَّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون.

فقال سبحانه: وعزتي لا يجاورني فيك بخيل».

قال في (الترغيب): رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) بإسنادين أحدهما جيد.

قال: ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أنس ولفظه:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «خلق الله جنة عدن

بيده: لبنة من دُرَّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، ومِلاطها مسك، وحشيشها الزعفران، وحصباؤها اللؤلؤ، وترابها العنبر، ثم قال لها سبحانه: انطقي، فقالت: قد أفلح المؤمنون ـ فهو سبحانه أنطقها بذلك ـ.

فقال الله عز وجل: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وعن كريب، أنه سمع أُسامة بن زيد رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألاَ هل مُشمِّر للجنة، فإنَّ الجنة لا حَظر لها ـ أي: لا مضايقة فيها وليس هناك مانع يمنع قاصدها ـ هي وربّ الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتزُّ، وقصر مَشيد، ونهر مطَّرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، حُلَل كثيرة، ومُقام ـ أي: إقامة ـ في أبد ـ لا نهاية له ـ في دار سليمة، وفاكهة وخُضْرة، وحَبْرة ـ أي: سرور دائم وفرح ظاهر ـ ونعمة، في محلَّة عالية بهيَّة».

قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمِّرون لها.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا إن شاء الله».

فقال: القوم إن شاء الله ـ آمين.

رواه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا، والبزار، وغيرهم كما في (الترغيب) وغيره.

وفي هذا الحديث وغيره يُرغِّب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة، ويحبِّب فيها، لأنها جنة الله تعالى، ودار كرامته،

ويحثُّ على النشاط والتشمير للأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة التي شرعها الله تعالىٰ ، وجعلها سبباً لدخول الجنة ، قال تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيكون المؤمن نشيطاً جادًّا ، مؤتمراً بأوامر الله تعالى ، منتهياً عما نهى الله تعالى عنه ، بعيداً عن الكسل والتقصير في العمل.

جاء في الحديث ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الكيس ـ أي: العاقل الفَطِن ـ من دان نفسه ـ أي: حاسبها ـ وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم كما في (الفتح الكبير).

قوله تعالى:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾

والمعنى: ويطوف عليهم الخَدَم بآنية جمع: إناء من فضة ، والمراد آنية الطعام ، وأكواب جمع: كوب ، وهو قدح لا عُروة له ، وهذه الأكواب هي للشراب المقدَّم لهم ، ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ أي كانت تلك الأكواب قوارير[1] وهو جمع قارورة ، وهي : إناء رقيق من الزجاج ، توضع فيه الأشربة ونحوها وتقرُّ فيه.

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: قد جَمعت صفتي الجوهرين المتباينين:

---

(١) قال المفسرون: وكانت هنا تامَّة ـ أي: أنها خلقت قوارير ـ.

صفاء الزجاج وشفوفه ، ورقَّته وبريقه ، مع بياض الفضة وصفائها وجمالها .

قوله تعالى : ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ التقدير هو جعل الشيء على مِقدارٍ معيَّن ، وشكل معيَّن ، ومساحة معينة ، في الطول والعرض ، والمساحة والسعة ، فقدَّرت الملائكة عليهم السلام صِناع هذه الأواني بأمر الله تعالى قدَّروا تلك الأواني والكؤوس على قَدَرِ ريِّهم ـ أي : ريّ المؤمنين الشاربين لها ـ لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، وهذا أبلغ في لذة الشارب ، فلو نقص عن ريِّه لنقص التذاذه ، ولو زاد لحصل ملاله وسآمه من الزيادة الباقية .

وبناءً على هذا يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يعود إلى الملائكة عليهم السلام ، الذين صنعوها وأتقنوا صنعتها ، بأمر الله تعالى لهم بذلك .

وقال قسم آخر من المفسرين : إنَّ الضمير في قوله تعالى : ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يعود للشاربين الذين تُقدَّم لهم ، والمعنى : أَنَّ الشاربين قَبل أَنْ تقدم لهم تلك الآنية ، قدَّروا في أنفسهم شيئاً معيناً ، وآرادوه ، فجاءهم الشيء على حسب ما قدَّروه في أنفسهم ، وأرادوه كاملاً طبق المراد من كل الحيثيات والاعتبارات فوراً .

وهذا كما قال تعالى : ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ فمتى اشتهوا شيئاً حصل لهم على أكمل الوجوه وأنعمها .

وقال تعالى : ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ فمتى شاؤوا شيئاً وأرادوه حصل لهم فوراً حسب ماشاؤوا كاملاً .

قوله تعالى:

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾ يعني: أَنَّ الأبرار يُسقون أيضاً علاوة على ما تقدم كأساً أي: فيها خمر الجنة، كان مزاجها زنجبيلاً.

فتارة يُمزج الشراب بالكافور، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وهو بارد، وتارة يُمزج لهم الشراب بالزنجبيل وهو حارٌّ ليعتدل الأمر، وذلك ألذّ للنفس وأنعم، فهؤلاء الأبرار يشربون بعد أن يُمزج لهم بالكافور تارة وبالزنجبيل تارة أُخرى، وأمّا المقربون فإنهم يشربون مِنْ كلٍ من الكافور والزنجبيل صِرفاً خالصة، لقوة استعدادهم وكمال قابليَّتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ والمعنى: أَنَّ الزنجبيل هو عين في الجنة، يَشرب بها عباد الله المقربون، الذين تقدم ذكرهم في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ الآية ـ أي: يشربون منها، ويرتوون بها رِيّاً كاملاً لذيذاً، ففيه تضمين الشرب معنى الريِّ، ولذلك جيء بالباء.

ثم إن هذه العين تُسمى سلسبيلا، وسميت بذلك: لسلاسة سيلها، وحدَّة جريها، ولسلاسة طعمها، ومذاقها اللذيذ، وسهولتها في الحلق.

فيا أخي المؤمن سل الله تعالى أن يوفقك لسلوك السبيل إلى عين السلسبيل ـ اللهم آمين.

قال العلامة القرطبي: السلسبيل هو الشراب اللذيذ، وهو فعليل من السلاسة، تقول العرب: هذا شراب سَلِس وسَلسال وسَلْسَل وسَلْسبيل بمعنى واحد ـ أي: أنه طيب الطعم لذيذه. اهـ.

وقد تكلمت في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) على الفوارق بين مقام الأبرار ومقام المقربين، وأعمال كل من الطرفين وأحوالهم، وفصلتُ ذلك مع الأدلة من الكتاب والسنة.

وبينتُ هناك أَنَّ كلمة الأبرار هذه الصفة إذا جاءت في مقابلة المقربين أو السابقين فإنه يراد بالأبرار أصحاب اليمين، ويقال لهم المقتصدون، وهم في الرتبة دون المقربين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ويقال للمقربين: السابقون، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وكما تقدم معنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ ـ أي: المقربون ـ ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ كما تقدم.

وإذا ذكر الأبرار وأطلق ذكرهم دون مقابلة بالمقربين فإنَّ وصف الأبرار يعمُّ الطرفين ـ أي: الأبرار الذين هم أصحاب اليمين، ويعم المقربين أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ

ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ فالأبرار هنا وصف يشمل الطرفين: الأبرار والمقربين.

وكما قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين أُولي الألباب يقولون: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ فصفة الأبرار هنا تشمل الطرفين، كما بينت ذلك في كتاب (التقرب إلى الله تعالى).

قوله تعالى:

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾

أي: ويطوف على أهل الجنة لأجل خدمتهم، وِلدان مُخلَّدون، قد أنشأهم الله تعالى نشأة باقية صافية، فهم مخلَّدون دائمون، لا يموتون ولا يتغيَّرون ولا تزيد أعمارهم عن تلك السن التي خلقهم الله تعالى عليها، فهم على حالة واحدة، في: سنهم وجمالهم، خلقهم الله تعالى لخدمة أهل الجنة.

فالحور في القصور، وهؤلاء الولدان لخدمة أهل الجنة في المجالس، والمنازل، والمجتمعات، والمحافل، وليطوفوا عليهم بآنية الطعام والشراب.

﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أي: إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة أهل الجنة، وكثرتهم، وحسن ألوانهم، وثيابهم، وحُليِّهم، وبهجة أنوارهم ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ وهؤلاء خُلقوا لخدمة أهل الجنة، فما أكرم أهل الجنة عند الله تعالى

وما أكرم منزلتهم عند الله تعالى ، وما أكرم نعيمهم .

روى البيهقي في (البعث) وابن المبارك ، وهنَّاد ، وعبد بن حميد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : (إن أدنى أهل الجنة منزلاً منْ يسعى عليه ألف خادم ، كلٌّ واحدٍ منهم على عمل ليس عليه صاحبه)[١] .

أي : كل واحد من الخدم له نوع مِن الخدمة غير العمل الذي يقوم به الآخر .

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

ثمَّ ظرف مكان ـ أي : هناك في الجنة ـ والمعنى : إذا رأيتَ ببصرك أيها الرائي ثمَّ ـ أي : هناك في الجنة[٢] ـ ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا ﴾ والنعيم جاء بالتنكير للتفخيم والتعظيم ، وهو يشمل سائر أنواع النعيم وألوانه التي يُتنعَّم بها .

---

(١) كذا في (الدر المنثور) و(ترغيب) المنذري ، وهذا وإنْ كان موقوفاً على ابن عمرو رضي الله عنهما لكن له حكم المرفوع لأنه لا مجال فيه للرأي ـ كما هو مقرر في علم مصطلح الحديث .

(٢) وحكى القرطبي عن الفرّاء أنَّه قال : في الكلام (ما) مضمرة أي : وإذا رأيت ما ثَمَّ . كقوله تعالى ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي : ما بينكم ، وقال الزجاج : ما موصولة بثمَّ على ما ذكره الفراء ولا يجوز إسقاط الموصول وترك الصلة ، ولكن رأيتَ يتعدى في المعنى إلى ثَمَّ ، والمعنى : إذا رأيت ببصرك ثمَّ ، ويعني بثمَّ الجنة .
قال القرطبي رحمه الله تعالى : وقد ذكر الفراء هذا أيضاً . ا هـ .

وقوله تعالى: ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ وهذا يشمل أيضاً أنواعاً من الملك:

فمن ذلك ما جاء في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لَمنْ ينظر إلىٰ جِنانه، وأزواجه ـ الحور العين ـ ونعيمه، وخَدَمه، وسُرره: مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله تعالى مَن ينظر إلى وجهه ـ سبحانه وتعالى ـ غدوة وعشياً».

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي، وأبو يعلى، والطبراني، والبيهقي.

قال: ورواه الإمام أحمد مختصراً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر إلى أزواجه وخدمه».

قال: وزاد البيهقي في لفظ له: «وإنَّ أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى الله عز وجلَّ في كل يوم مرتين».

قلت: ولفظ المسند هو ما يلي:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة: لَينظر في ملكه ألفي سنة، يرى أقصاه ـ أي: أقصى ملكه ـ كما يرى أدناه، ينظر في أزواجه وخدمه، وإنَّ أفضلهم منزلة لينظر إلى وجه الله تعالى كلَّ يوم مرتين».

فإذا كان أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه ألفي سنة ، فما ظنك بمن هو أعلى منه ، ثم من هو أعلى وهكذا دواليك .

وقد أعطى الله تعالى أهل الجنة قوة في جميع حواسهم ومداركهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، وجميع قُواهم ، لأن الله تعالى أنشأهم نشأة باقية دائمة ، خالدين فيها أبداً ، فيرى أحدهم أقصى ملكه كما يرى أدناه ، على حد سواء ، قال تعالى: ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ومن ذلك ما جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تمارُون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟

قالوا: لا يا رسول الله .

قال: «هل تُمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب»؟

قالوا: لا .

قال: «فإنكم ترونه كذلك» .

وهكذا ذكر الحديث بطوله إلى أن قال صلى الله عليه وآله وسلم : «ثم يفرغ الله تعالى مِن القضاء بين العباد ، ويبقى رجل بين الجنة والنار ، وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة» ـ أي: من العصاة الذين يخرجون من النار ، وأما الكفار فقد قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ـ .

«مقبلاً بوجهه قِبَل النار» ـ أي: ذلك الرجل الذي هو آخر أهل

النار دخولاً الجنة يبقى مقبلاً بوجهه إلى النار ـ «فيقول: يا ربِّ اصرف وجهي عن النار فقد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاها ـ أي: اشتعالها ولهبها الشديد ـ فيدعوا الله عز وجل بما شاء أن يدعوه به.

ثم يقول الله تعالى له: هل عسيتَ إن أُعطيت ذلك أن تسأل غير ذلك؟

فيقول: لا وعزتك وجلالك لا أسألك غيره ـ فيعطي الله ما شاء مِن عهدٍ وميثاق أن لا يسأل غيره.

فيصرف ـ الله عز وجل ـ وجهه عن النار، فإذا أقبل بوجهه على الجنة، ورأى بهجتها ـ سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت ثم قال: ياربِّ قدِّمني عند باب الجنة.

فيقول الله تعالى: أَلست قد أعطيتَ العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي كنت تسأل، ويْحكَ يا ابن آدم ما أغدركَ.

فيقول: يا رب لا أكون أشقى خلقك.

فيقول ـ تعالى ـ: هل عسيتَ إنْ أعطيتَ ذلك أن تسأل غيره؟

فيقول: لا وعزتك وجلالك لا أسأل غيره».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وربُّه يعذره لأنه يَرى ما لا صبر له عنه ـ فيعطي ربَّه ما شاء من عهد وميثاق.

فيقدِّمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها، ورأى زهرتها، وما فيها من النضرة والسرور ـ سكت ما شاء الله تعالى أن يسكت ثم يقول: يا ربِّ أدخلني الجنة.

فيقول ـ الله تعالى ـ: ويْحكَ يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد

أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي قد أُعطيتَ؟

فيقول: ياربِّ لا تجعلني أشقى خلقك.

فيضحك الله تعالى منه، ثم يأذن له في دخول الجنة، ويقول له: تَمنَّ فيتمنَّى، حتى إذا انقطعت أُمنيَّته قال الله تعالى: تمنَّ كذا وكذا ـ يُذكِّره ربه ـ أي: يذكره بأمور يتمناها فيها ألوان من النعيم ـ حتى إذا انتهت به الأماني قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه».

قال أبو سعيد: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لك ذلك وعشرة أمثاله معه».

قال في (تيسير الوصول): أخرجه الشيخان والترمذي.

ومن ذلك ما روى الإمام مسلم والترمذي، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سأل موسى عليه السلام ربَّه تعالى ما أدنى أهل الجنة منزلة؟

قال ـ سبحانه ـ: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: أي ربِّ وكيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم.

فيقال: أما ترضى أن يَكون لك مِثل مُلك مَلك مِنْ ملوك الدنيا؟

فيقول: رب رضيتُ.

فيقول ـ سبحانه ـ: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله.

فيقول في الخامسة: رضيتُ ربِّ.

فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ، ولذَّت عينك .

فيقول : ربِّ رضيتُ .

قال ـ موسى عليه السلام ـ: فأعلاهم منزلة؟

قال ـ سبحانه ـ: أولئك الذين أردتُ ، غرستُ كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تَسْمعَ أُذن ، ولم يخطر على قلب بشر»[(١)] .

والمعنى أنَّه سبحانه أعدَّ لهم ما لا عين رأيت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فمهما خطر على قلب بشر من عَظمة ما أعد الله تعالى لهم ، ومِنْ سعة الكرم الإلّهي الذي ادَّخره لهم ، ومن الفضل العظيم الذي يُعطيهم الله تعالى؛ مهما خطر على القلب مِنْ عظمة ذلك فالأمر أعظم من ذلك .

وها نحن نسأل الله العظيم أن يتفضَّل علينا بذلك بجاه حبيبه الأكرم ، ورسوله الأعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وحاشا أن يخيب من توسل إلى الله تعالى بالحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحةٍ ونَفَس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ .

في هذا دليل على أَنَّ جميع أهل الجنة هم ملوك فيها؛ ولكن على مراتب متفاوتة ، وأن أدنىٰ أهل الجنة يُعطىٰ في الجنة مِنَ

---

(١) كذا في : (تيسير الوصول) .

الملك أضعاف أضعاف ما أوتيه مُلوك الدنيا ـ كما تقدم في الأحاديث السابقة ، ويعطون أنواع النعيم الدائم ، والتكريم الأبدي ، والشباب الباقي ، والصحة والحياة الأبدية .

روى مسلم في (صحيحه) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وأبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ينادي منادٍ[1] إنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكم أَنْ تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكم أَنْ تشبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكم أَنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً» فذلك قول الله عز وجل : ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا لفظ مسلم في (صحيحه) .

كما أَنَّ أهل الجنة هم يزدادون حسناً وجمالاً دائماً وأبداً :

روى مسلم ، عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إنَّ في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهبُّ ريح الشمال ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً» .

---

(١) أي : إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ينادي منادٍ ـ كما يدل على ذلك بقية الروايات .

قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

ومن **الملك الكبير** ما ذكره العلامة القرطبي عن السُّدِّي وغيره: استئذان الملائكة عليهم السلام للدخول على أهل الجنة ليسلموا عليهم، تكريماً لهم، وتعظيماً، وتهنئةً لهم، وهم في قصورهم.

ونقل الإمام القرطبي عن سفيان الثوري أنه قال: بلغنا أنَّ المُلك الكبير ـ أي: المذكور في الآية الكريمة ـ هو: تسليم الملائكة عليهم، قال: ودليله قول الله تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾.

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم، وعبد الله بن المبارك، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إنَّ المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سِماطان ـ أي: صنفان ـ مِن خدم، وعند طرف السماطين باب مبوَّب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول الخادم للذي يليه: مَلَك يستأذن، ويقول الذي يليه للذي يليه مَلَك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن ـ في قصره ـ فيقول: ائذنوا له.

فيقول: أقربهم للمؤمن: ائذنوا له، ويقول الذي يليه للذي يليله: ائذنوا له، حتى يبلغ أقصاهم الذي عند الباب فيفتح له

فيدخل ـ الملك ـ فيسلِّم ثم ينصرف» انظر تفسير ابن كثير ، و(الدر المنثور) وغيرهما[1] .

فما أكرم وأعظم هذا المُلك الكبير ، الذي أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين في الجنة .

ومن الملك الكبير ما ذكره العلامة القرطبي في تفسيره : كون التيجان على رؤوسهم ـ أي : التيجان المرصَّعة ـ كما تكون على رأس ملكٍ من ملوك الدنيا ، ولكن أين تيجان الدنيا من تيجان أهل الجنة .

ومن المُلك الكبير أَنَّ لهم ما يريدون ويشاؤون وما يشتهون ويتطلَّبون :

قال الله تعالى : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى في أهل الجنة : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾ ـ أي : أنواع

(١) وهذا الخبر الوارد عن أبي أمامة رضي الله عنه له حكم المرفوع ، لأنه أمر غيبي ولا مجال للرأي فيه .

الفاكهة ـ ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ يتطلَّبون ويريدون.

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾.

فقد بَيَّن الله تعالى في هذه الآيات وغيرها فضله الكبير على أهل الجنة، وأَنَّ لهم فيها ما تشتهي أنفسهم، وأَنَّ لهم ما يشاؤون عند ربهم، وأَنَّ لهم ما يطلبون، ومتى اشتهوا شيئاً أو شاؤوه وأرادوه وُجِدَ ذلك فوراً بلا تأخر.

وهذا وغير هذا مما ذكره الله تعالى، من فضله وكرمه، وكرامته لأهل الجنة، كل ذلك يدلك على شرف المؤمن وكرامته عند الله تعالى، بسبب النور الإيماني الرباني الذي أودعه تعالى في قلب المؤمن، وكتبه فيه، فاستنار به قلبه وعقله، وسمعه وبصره، وجميع مداركه وحواسّه، وفكره وفهمه؛ إلى ما هناك، وبهذا النور صار يعرف حقائق الأمور بدون ارتياب ولا التباس، وبلا شك، بل هو على اليقين الجازم.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: هو كالمتخبط في الظلمات لا يفرق بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تنبيه إلى قوة ذلك النور الكاشف للأمور، فإنَّه نور من الله تعالى، وقد ضرب الله تعالى مثلاً للنور الإيماني الذي أودعه في قلب المؤمن: فقال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن

﴿يَشَآءُ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه النور الذي أظهر به وجود الأكوان ، والنور الذي أضاء به القلوب بالإيمان:

فالأول: أشار إليه بقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ فهو سبحانه الذي أفاض على السموات والأرض ومَنْ فيهن نور الوجود؛ فأظهرها من ظلمة العدم الإمكاني ، فمعنى أنَّه سبحانه هو نُورها ، أي: به ظهورها فإنَّ النور هو ما كان ظاهراً بنفسه ومظهراً لغيره.

وما مِنْ ظاهر في الوجود إلَّا والذي أظهر وجوده هو أظهر وجوداً منه ، ولا مِنْ نَيِّر إلا والذي نوَّره هو أقوى نوراً منه.

فسبحان مَن أظهر الظاهرات بعد ما كانت في خفايا الظلمات ، وسبحان مَن نوَّر النيِّرات فأشرق نورها على الكائنات ، وسبحان مَنْ تجلَّى بنور الإيجاد على الظلمات العدمية فأشرقت بنور الوجود ـ وسأذكر الأدلة على جميع ذلك مفصلاً ـ.

جاء في (الصحيحين) وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام يتهجَّد في الليل قال: «اللهم ربنا لك الحمد أنتَ قَيِّم[(١)] السموات والأرض ومن فيهنَّ ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومَن فيهن ـ وفي رواية: «ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهنَّ» ـ ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن ،

(١) وجاء في رواية: «أنت قيَّام السموات والأرض ومَنْ فيهن».

ولك الحمد أنت الحقُّ ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حقّ ، وقولك حقٌّ ، والجنة حقّ ، والنار حقّ ، والنبيون حقّ ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حقٌّ ، والساعة حقّ.

اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبتُ وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدَّمت وما أخرت ، وما أسررتُ وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنْتَ المقدِّم ، وأنت المؤخِّر لا إلّه إلا أنت».

قال في (التيسير): رواه الستة ، وهذا لفظ الشيخين. ا هـ.

وروى الطبراني ، عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا ـ أي: يوم الطائف ـ فقال: «اللهم إني أشكو إليك ضَعف قوتي ، وقلَّة حيلتي ، وهَوَاني على الناس يا أرحم الراحمين إلى مَنْ تكلني؟ إلى عدوٍّ يتجهمني ـ أي: يغلظ عليَّ ـ أم إلى قريب ملَّكته أمري ، إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أُبالي ، غير أَنَّ عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أَنْ تُحلَّ عليَّ غضبك ، أو تنزل عليَّ سَخَطك ، ولك العتبى حتى ترضى ـ أي : أسترضيكَ حتى ترضى ـ ولا حول ولا قوة إلا بك» كذا في (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه.

وأما النور الذي أضاء القلوب بالإيمان والمعرفة: فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وقد جاء عن أبي بن كعب وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتابعين

في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قالوا: مَثَل نور الله تعالى في قلب عبده المؤمن ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الآية.

وإنَّ أوَّل القلوب استنارة بهذا النور، وأعظم القلوب إضاءة بهذا النور، وأوسع القلوب إشراقاً بهذا النور هو قلب سيد العالمين، وإمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أفاض الله تعالى عليه ما أفاض، وأعطاه ما أعطاه مِنْ قبل أَن يخلُق آدم عليه السلام، كما جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله متى وَجَبتْ لك النبوة؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد» رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح، قال: وفي الباب عن ميسرة الفجر. اهـ كما في (سنن) الترمذي.

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كُنت نبياً؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وأخرجه الإمام أحمد من وجه آخر بلفظ: متى جُعلتَ نبياً؟

قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وهذه الرواية تَردّ رداً صريحاً على مَنْ يتأوَّل: (متى كنت نبياً) بمعنى: كُتِبْتَ ـ فهذا تأويل باطل مردود برواية (متى جُعلت نبياً) وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم، ورواه البخاري في (تاريخه الكبير) ورواه أبو نعيم في (الحلية) ورواه الإمام البغوي وابن السكن، والحاكم وصححه وأقرَّه الذهبي على تصحيحه، وقال في

(الإصابة): سنده قويٌّ. ا هـ كما في (شرح المواهب اللدنية).

وروى الإمام أحمد، عن سارية رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته».

وروى ابن سعد في (الطبقات) من رواية جابر الجعفي، عن الشعبي أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله متى استنبئتَ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وآدم بين الروح والجسد».

وهذا المرسل يَعضده ويقوِّيه حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي رواه أبو نعيم، عن عمر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: متى جُعلتَ نبياً؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد».

وعن سهل بن صالح الهمداني قال[1]: سألت أبا جعفر محمد بن علي بن الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: كيف صار محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخر مَن بُعث؟

فقال: إنَّ الله تعالى لما أخذ الميثاق مِنْ بني آدم مِنْ ظهورهم ذرياتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم، كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل من قال: بلى ـ أي: أنت ربنا[2] ـ ولذلك صار

---

(١) كذا في أمالي أبي سهل ابن القطان.

(٢) وقد كان هذا الميثاق في عالم الذر، والكلام على عالم الذر وعالم الأرواح وأحكامهما تجده مفصلاً مع الأدلة في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة الأكوان) فارجع إليه تجد ما ينفعك.

محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدَّم الأنبياء وهو آخر مَن بُعث .

وروى ابن سعد في (الطبقات) بإسناد حسن ، عن قتادة مرسلاً ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «كنتُ أول الناس في الخَلْق وآخرهم في البعث» .

أي : هو صلى الله عليه وآله وسلم في البعث إلى عالم الدنيا آخرهم ، والمراد بالناس الأنبياء ، كما جاء في رواية أبي نعيم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : «كنتُ أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث» صلى الله العظيم عليه وعلى آله وسلم ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل وقت وحين ، عدد ما وسعه علم الله العظيم .

إذا علمتَ ذلك علمتَ أَنَّ أوَّل القلوب ، وأعظم القلوب إضاءة بهذا النور الإلٰهي الإيماني ، وأوسع القلوب إشراقاً بنور الإيمان بالله تعالى ؛ هو قلب سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي استنارت به القلوب ، والذي أشرق على مرايا القلوب الصافية فانعكس فيها ذلك النور الإيماني الرباني ، كلٌّ على حسب استعداد ذلك القلب وقابليته ، قال الله تعالى في أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي : وهي كلمة لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ، التي جاءهم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فألزمهم إيّاها بحيث لا تنفك عنهم ولا ينفكون عنها ، ثم بيَّن سبحانه كمال أحقِّيَّتِهِمْ ، وكمال أهليتهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿وَكَانُوٓاْ﴾ ـ أي : في علم الله الأزلي الذي لا أول له ـ ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾ من جميع مَنْ سواهم ﴿وَأَهْلَهَا﴾ ـ أي : وفيهم الأهلية الكاملة ، والقابلية التامَّة ، على أكمل وجوهها ـ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ هو يَعْلم بعلمه

المحيط بكل شيء أحقِّيَّتهم وأهليتهم ، ولذلك ألزمهم كلمة التقوى (لا إله إلا الله محمد رسول الله) التي : هي أصل الإيمان ، وعنها تتفرع جميع شعب الإيمان .

ولهذا قال كثير من المحققين والعارفين في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ﴾ الآية : إنَّ المراد بالمشكاة هو صدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والزجاجة هي قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، والمصباح هو النور الإيماني المحمدي الذي أفاضه الله تعالى ، وأمدَّه به منذ كان في العوالم السابقة : عالم الذر ، وعالم الأرواح ؛ وما هنالك ، وهو لا يزال صلى الله عليه وآله وسلم يُمدُّه الله تعالى بمدده الأعظم ، ويفيض عليه مِنَ الأنوار والأسرار ، على وجه لا يُحصى عدداً ، ولا ينقطع أبداً ، قال الله تعالى : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يزال يرتقي في العلم بلا إله إلا الله ، ويزداد من العلم بذلك كما قال الله تعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ فإن العلم بلا إله إلا الله لا ينتهي أبداً .

والشجرة هي : شجرة الوحي المحمدي ، الذي جاء بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وبما فيه صلاح أمور الدنيا والآخرة ، وفلاحها ونجاحها ، مهما تعاقبت الأجيال وتنوعَّت الأشكال والأمم ، وامتدَّت العصور ، واختلفت الأزمنة والأمكنة .

فسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو المصباح الذي تستمد من نوره مصابيح القلوب ، كلٌّ على حسب قابليته واستعداده ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم السِّراج المنير الذي نَوَّر

الله تعالى به القلوب والعقول ، والأسماع والأبصار ، والمدارك والأفكار ، والأرواح والأشباح ، وسائر الأكوان ، ولذلك سمَّاه الله تعالى ووصفه بأنه سراج منير ، فسمَّاه ووصفه بما سمي به شمس الضياء في علياء السماء قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ لكن وصفه الله تعالى بوصف أكمل وأجلَّ ، وأعلى وأسمى من وصف شمس السماء قال سبحانه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ فهو السراج المنير الذي لا يُستغنىٰ عن نوره ، وهو المنير الذي يُفيض النور ، ومن المعلوم أَنَّ النور لا يُستغنىٰ عنه لا في الليل ولا في النهار ، أما الشمس السمائية فقد وصفها سبحانه بأنها سِراج وهَّاج ، فهي يُستغنى عن نورها مُدداً طويلة ، كما أنها قد ينشأ عن وهجها أضرار كما تقدم بيان ذلك مفصلاً .

وأما سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو السراج المنير ، الذي لا ينشأ عنه إلاَّ الخير ، وبنوره يَـهتدي العاقل إلى كل خير ، ويحذر من كل شرٍّ .

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ ـ أي: عظموه ـ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ .

فالمتبعون له صلى الله عليه وآله وسلم هُم المشَّاؤون على النور والهدى في جميع الأمور ، والمعرضون عن اتباعه هم يتخبَّطون في ظلمات الشُّكوك ، والأهواء الفاسدة ، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الآية .

وقال تعالى في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ .

اللهم اجعل لنا من لدنك نوراً يا ذا الفضل العظيم.

وقد وصف الله تعالى عباده المؤمنين بقوة نور إيمانهم المحيط بهم من جميع جوانبهم: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ اللهم آمين.

فهذا نور إيمانهم يُضيءُ لهم في سَيرهم على الصراط يوم القيامة، فيدخلون الجنة بسلام، وكل مؤمن نوره على حسب إيمانه: الاعتقادي، والعملي، والقولي.

روى عبد الرزاق، وابن المنذر، وغيرهما عن قتادة قال: ذُكر لنا أنَّ نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن من المؤمنين يوم القيامة من يُضيء له نوره كما بين المدينة إلى عَدَن أَبْيَن إلى صنعاء، فدون ذلك ـ أي: وهناك من هم نورهم أقل مِنْ ذلك ـ حتى إنَّ مِنَ المؤمنين مَنْ لا يضيء له نوره إلاَّ موضع قدميه» كذا في (الدر المنثور)، وتفسير ابن كثير وغيرهما.

قوله تعالى:

﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ يبين الله تعالى لباس أهل الجنة، وأنه الحرير كما قال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ومنه نوع سندس وهو: رفيع الحرير وناعمه، وهذا يلبس كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والاستبرق منه ـ أي: من الحرير ـ هو: ما فيه بريق وشدة لمعان وصفيق وهو مما يلي الظاهر ـ أي: فوق القميص.

قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ أي: كما يُحلَّون فيها أساور من ذهب.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾.

ولاتنافي بين الآيتين: فهم يلبسون تارة أساور الذهب، وتارة يلبسون أساور الفضة، حسب ما يشتهون ويريدون.

وقال بعضهم: يُجمع في يد أحدهم سِواران من ذهب، وسواران مِن فضة، وسِواران من لؤلؤ، ليجتمع لهم محاسن الجنة ـ قاله سعيد بن المسيب.

وقيل: لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم[١].

قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ والمعنى: أنَّ أهل الجنة سقاهم ربهم الذي هو خالقهم، وهو مربيهم، ومرقيهم في مقامات الكمال، كلاً على حسب قابليته واستعداده، فإنَّ الذي سقاهم هو ربهم، وهو أعلم بهم، وبما يستعدُّون له من أنواع الشراب.

وقوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هذا يدل على أنَّ هذا الشراب هو أفضل من الأشربة المتقدمة: الكافور، والزنجبيل، والسلسبيل، ووجه الأفضلية أنَّه سبحانه أسند سُقيا هذا الشراب إليه فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: ربهم المربي لهم، المحسن إليهم، والمنعم عليهم، هو الذي سقاهم ذلك الشراب، على وجهٍ دائم لا ينقطع أبداً.

وَوَصف سبحانه هذا الشراب بالطَّهور، فدلَّ ذلك على أَنَّ هذا الشراب غير الأشربة المتقدمة، بل هو يفوقها، وهو أفضل منها كلها، ولذلك هو الذي سقاه لهم، وله خواصه وآثاره في الشاربين لا توجد في غيره، فيزيدهم هذا الشراب معرفةً بربهم سبحانه، ومحبةً وهياماً، وترقِّياً وقرباً، كلٌّ على حسبه: استعداداً ومرتبةً وقابليةً، نسأل الله تعالى ذلك من فضله وكرمه، بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحبيب، الذي من توسل به إلى الله تعالى لا يخيب، فلا نخيب إن شاء الله تعالى أبداً.

إلى بابك العالي مددتُ يدَ الرجا   ومَنْ جاء ذاك الباب لا يختشي الردى

---

(١) انظر (تفسير) القرطبي وغيره.

سألتـك يـا ألله مستشفعـاً بمـن ضيا وجهه الوضَّاء يَبرق في الدُّجا
صلى الله عليه وآله وسلم

وينبغي أَنْ يُعلم أَنَّ الترقي في الجنة ما ينقطع ، فهم دائماً يزدادون إيماناً بالله تعالى ، ومعرفةً به ، وحباً فيه ، ويزدادون علماً بأسمائه ، وصفاته ، وكمالاته سبحانه وتعالى؛ فوق ما يعلمونه في الدنيا .

روى الترمذي وغيره ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقال لصاحب القرآن ـ أي : بعد دخوله الجنة ـ إقرأ وارْقَ وَرَتِّل كما كنتَ ترتل في الدنيا ، فإنَّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها» .

أي: فلا يزال يقرأ ، ولا يزال يرقىٰ وترتفع منزلته .

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ .

فالنعيم الذي في الجنة بأنواعه هو دائم ، وهو في تجدّد وارتقاء وازدياد، ولذلك لا يبغون عنها حِولاً ـ أي: تحولاً عنها إلى غيرها ـ فإنهم في نعيم متجدّد ، وبازدياد ، وترقٍ ، فلا يعتريهم سآمة ولا ملل مما هم فيه؛ بل هم في نعيم جديد دائماً ، وهم في ترقٍّ دائم كما قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .

أي: عطـاءً مِـن الله تعـالـى دائـم، ومتجـدد ، ومتنـوِّع ، ومتضاعف ، وفي ازدياد على وجه غير مجذوذ ـ أي: غير مقطوع ـ ولذلك فإنَّهم لا يملُّون ولا يسأمون ، لأنهم يترقون في النعيم .

وقال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

روى ابن جرير بإسناده، عن يحيى بن أبي كثير قال: (يُؤتى أحدهم بالصحفة ـ أي: الآنية ـ من الشيء ـ أي: الطعام ـ فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى ـ أي: صحفة أخرى ـ فيقول المؤمن: هذا الذي أتينا به من قبل ـ أي: الطعام الذي أكل منه قبل ـ.

فتقول له الملائكة عليهم السلام: كل فاللون واحد والطعم مختلف، وهذا قوله الله تعالى: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾) اهـ.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

والمعنى أنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنة بعد ما دخلوها، ونزلوا منازلهم، وحَلُّوا في قصورهم، وشاهدوا جلائل النِّعم، وعظائم الكرم، ورأوا فيها ما لا عين رأتْ، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واعترفوا بفضل الله تعالى الكبير عليهم، فحمدوه وأثنوا عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ﴾ ـ أي: ناداهم ربُّ العزة ـ ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ ـ أي: تلكم الجنة العالية الواسعة، الجامعة لأنواع الفضائل والنِّعم والنعيم ـ ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال سبحانه في هذه السورة التي نحن في تفسيرها: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ ناداهم رب العالمين بعد ما تفضَّل عليهم وأعطاهم، وقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما تشاهدونه من جلائل النعم، وعظيم أصناف الكرم، وما حواه من ألوان النعيم المقيم، والفضل العظيم ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: على أعمالكم الصالحة التي قدمتموها، وأقوالكم الطيبة التي تقربتم بها إلى الله تعالى، فأنتم مُحسنون في أعمالكم وأقوالكم؛ وإن الله تعالى لا يضيع أجر مَن أحسن عملاً، وهو سبحانه كما قال: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مرضياً مقبولاً، يشكركم ربكم عليه، فإنَّه سبحانه وتعالى كما قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فهو سبحانه غفور يغفر للعبد إذا تاب من ذنوبه، وهو سبحانه شكور يشكر عباده إذا هُم آمنوا وعملوا، وأصلحوا وأحسنوا، فيعطيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ فبين سبحانه أنه لا يعذب عباده إن شكروه وآمنوا به ـ أي: آمنوا به إيماناً اعتقادياً في قلوبهم دون ريب ولا شك، وآمنوا به عملاً بأن امتثلوا أوامره واجتنبوا النواهي والمحرمات، فالإيمان عند الإطلاق يشمل العمل الصالح قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم، فأراد بالإيمان هنا الصلاة، كما دل عليه سبب النزول كما بينت ذلك في مواضع من كتبي.

فقوله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ في هذا بيان للعباد أنَّه لا يضيع عمل العبد؛ إذا كان ذلك العمل صالحاً حسناً، فيه خير، ولو كان قليلاً بظاهره.

جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب منها، ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثَّرى ـ التراب ـ من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل ما بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفَّه ماءً، ثم أمسك خفه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب ـ فشكر الله تعالى له فغفر له».

فقالوا: يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم أجراً ـ أي: في الإحسان إليهم أجر ـ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «في كلِّ ذات كبدٍ رطبة أجر» رواه الشيخان، ومالك، وأبو داود والإمام أحمد كما في (الفتح الكبير).

وروى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوكٍ على الطريق فأخَّرَه ـ وفي رواية: «فأماطه عنه»ـ فشكر الله تعالى له فغفر له».

فانظر أيها المؤمن العاقل في عظيم فضل الله تعالى، وسعة

عفوه ومغفرته ، وجوده وكرمه ، إنَّه سبحانه ليشكر عبده على فعل الخير القليل ، ويعطيه على ذلك الأجر الكبير ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ـ أي : في مقابل عملهم ـ ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ وهذا لا يعلم حدَّه وعَدَّه إلا الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ومما تقدم في الحديث تعلم ثواب الذي يُزيل الأذى عن الطريق ، حتى لا يتأذَّى به إنسان ولا حيوان ، وقد بينت وزر الذي يضع الأذى في الطريق ، بينت ذلك مع الأدلة في موضعه .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

في هذا يعلن سبحانه شكره لعباده المؤمنين ، على ما قدَّموا من عمل صالح ، وكلم طيب ، يبتغون فضلاً من الله تعالى ورضواناً ، فيقول لهم : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ ليزدادوا رضا وسروراً ، وفرحاً كبيراً ، وفي هذه تهنئة لهم على أعمالهم المبرورة ، وفي هذا إعلامه سبحانه وتعالى بتمام رضاه عنهم ، وهذا هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسمى ، الذي تسمو إليه همم العارفين المحبين ، وتتسارع إليه قلوب الأولياء والصديقين ، فإنَّ رضىٰ المحبوب هو غاية المطلوب .

إذا كنتَ عني يا مُنىٰ القلب راضياً أرى كل مَنْ في الكون لي يَتبسَّم

قال الله تعالى في وصف أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وثنائه عليهم : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ـ أي : حيثما نظرتَ إليهم أيها الرائي تراهم ركعاً سجداً ـ فوصفهم بكثرة العبادة ، ثم بيَّن صدقهم وإخلاصهم في أعمالهم وصلواتهم لله تعالى ، فقال تعالى : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ ﴾ فمقصدهم من العبادة والعمل الصالح ، وبُغيتهم هي : فضل الله تعالى ورضوانه ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ﴾ فوجوههم مشرقة بأنوار الصلاة والعبادة .

وقال الله تعالى في المهاجرين رضي الله عنهم وما لقوا مِنْ شدائد ومضايقات مِنَ المشركين : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ .

وقد بيَّن سبحانه أَنَّ رضوانه الذي يُحلُّه على أهل الجنة هو أكبر وأعظم ، وأجلُّ مما هم فيه من النعيم المقيم والأجر العظيم .

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك ونبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً أبداً أبداً .

روى الشيخان وغيرهما ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة.

فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك.

فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» اللهم يا سميع يا قريب يا مجيب، اجعلنا منهم بجاه رسولك الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم، الذي مَنْ توسَّل به إليك لا يخيب ـ آمين.



أكـرم أهـل الجنـة منـزلـة وأعـلاهم درجـة وأرفعهـم مقامـاً

هـو سيدنـا محمد صلى الله عليه وآله وسلـم صاحب مقام الوسيلـة

الوسيلة في اللغة هي: التي يُتوصل بها إلى تحصيل المقصود المحمود.

وأما الوسيلة التي خصَّ الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فهي عَلَم على أعلى منزلة في الجنة، ليس فوقها منزلة، بل هي فوق كل منزلة، وهي أقرب المنازل إلى العرش الكريم.

فهذه المنزلة المُشرفة على جميع منازل أهل الجنة، خص الله تعالى بها سيدنا محمداً رسول الله أكرم الخلق على الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء ذلك في الأحاديث النبوية ومنها:

ما رواه الترمذي، والإمام أحمد وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا صليتم عليَّ فسلوا الله لي الوسيلة».

قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟

قال: «أعلى منزلة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجوا أَنْ أكون أنا هو».

وروى ابن مَرْدُوْيَـهْ بإسناده، عن أبي سعيد الخدري رضي الله

عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الوسيلة درجة عند الله تعالى، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أَنْ يؤتيني الوسيلة على خَلْقه».

وروى ابن مَردويه أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه: قال: «صلُّوا عليَّ صلاتكم، وسَلُوا الله لي الوسيلة».

فسألوه ـ أي: سأله الصحابة عن الوسيلة ـ أو أخبرهم صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عن الوسيلة شك الراوي ـ فقال: «إنَّ الوسيلة درجة في الجنة، ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا» كذا في (تفسير) الحافظ ابن كثير.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته أَنْ يسألوا الله تعالى له الوسيلة، وذلك لينالوا الأجر العظيم، والفضل الكبير؛ المرتب على دعاء الوسيلة:

روى مسلم وغيره، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنَّه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذِّن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فإنَّه مَنْ صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثُم سَلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبدٍ من عباد الله، وأرجوا أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حَلَّت عليه الشفاعة».

قال العلامة المناوي: أي: وجبت وجوباً واقعاً عليه. ا هـ.

وقد علَّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعاء الوسيلة عقب الأذان:

روى الإمام البخاري، عن جابر رضي الله عنه قال: قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قال حين يسمع النداء ـ أي: الأذان ـ اللهم ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدتَّه ـ وفي رواية البيهقي: «إنك لا تخلف الميعاد» ـ إلاَّ حلَّت ـ أي: وجبتْ ـ له الشفاعة يوم القيامة» أي: شفاعته الخاصة صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنه لَم يسألها لي عَبْدٌ في الدنيا إلا كُنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة» كذا في (تفسير) ابن كثير وغيره.

قـوله تـعـالـى:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: بعد ما ذكر سبحانه وتعالى في أول السورة بَدْءَ خلق الإنسان، وأنه مخلوق بعد عدم، وأن هذا أمر بديهي لا يقبل الجدل، فلا بدّ له ـ أي: الإنسان ـ من خالق ينقله من العدم إلى الوجود الخارجي الكوني، ثم أثبتَ أنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان فقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ الآية، ثم بين سبحانه وتعالى فضله على الإنسان، وتكريمه للإنسان، بإعطائه المدارك: السمع والبصر ـ أي: وما هنالك من العقل والفكر، والاختيار

والمشيئة ، والنظر في الأمور وتبين حسنها وسيئها ، ومنافعها ومضارها ، ومصالحها ومفاسدها.

ثم ذكر سبحانه هدايته السبيل الذي فيه الدّلالة على كل خير ، والتحذير من كل شر.

ثم بين سبحانه وتعالى اختيار الإنسان لأحد الأمرين فهو كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

ثم ذكر نتيجة كلٍّ منهما ، وجزاء كلٍّ منهما ، وبَيَّن منازل عباد الله المؤمنين ، ونعيمهم ، وما أعد الله تعالى لهم من ألوان النعيم المقيم ، والفضل العظيم ، والملك الكبير ، وفصَّل سبحانه وتعالى جميع ذلك تفصيلاً ، فبعد ذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴾ ليبين للعباد أَنَّ تلك الآيات المتقدمة في السورة ، وجميع ما جاء به هذا القرآن الكريم من الآيات والسُّور القرآنية ، إنَّما أنزله الله تعالى على رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وأَنَّ ذلك كله هو كلام الله تعالى ، أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن جميع ما جاء به هذا القرآن الكريم مِن الإخبار عَمَّا مضىٰ ، وعمَّا هو آتٍ ، كلُّ ذلك حقٌّ وحقيقة قال الله تعالى ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في تهجده: «اللهم أنت الحقّ ، ووعدك حقٌّ ، ولقاؤك حقّ ، وقولك حقّ ، والجنة حقّ ، والنار حقٌّ ، والنبيون حقّ ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حقٌّ ، والساعة حق».

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ .

في هذه الآية الكريمة يتحدَّى سبحانه المنكرين لنزول هذا القرآن من عند الله تعالى فيقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ ـ يا رسول الله ـ ﴿ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ فمن زعم أنَّه مِن كلام البشر، أوْ أنَّك يا رسول الله أَتَيْتَ به من تلقاء نفسك، أو تعلمته من بشر ـ فليأت بمثله، ولو بسورة واحدة من أقصر سوره، وليبذل المنكرون لنزوله من عند الله تعالى جهودهم أفراداً وجماعات، متعاضدين ومتعاونين على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ فلقد تحدّاهم سبحانه، وأعلن عجزهم جميعاً، وهذا أنكىٰ للخصم المنكر، وأقوى خذلاناً وتحقيراً وإهانةً، للذين لا يؤمنون أن الله تعالى هو الذي نزل هذا القرآن الكريم، على رسوله سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم أجمعين صلوات الله وسلامه تعالى عليه وعليهم أجمعين.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبَيِّن الله تعالى أنَّه سبحانه نزَّل هذا القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم آيات بعد آيات، ولم يُنزله كلَّه جملةً واحدة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ أي: آيات بعد آيات، منجماً في نحو ثلاث وعشرين سنة، وذلك لِحكم إلَهية كبيرة، وأسرارٍ ربانية عالية كثيرة، قد بينها الله تعالى في مواضع متعددة من كتابه العزيز، والبحث في

الكلام عنها ، وتفصيل ذكرها هو بحث طويل أذكر في هذا الكتاب جانباً من جوانبه :

فمن تلك الحكم في نزول القرآن الكريم منجماً آيات بعد آيات : إجابة السائلين عن أسئلتهم ، عندما كانوا يوجهونها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لغرض التثبت من رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال الله تعالى في جواب سؤال أهل الكتاب له صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا﴾ .

ومن تلك الحكم : إجابة السائلين المؤمنين على أسئلتهم التي يُوجهونها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقصد معرفة حُكم الله الشرعي فيها ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ الآية .

ومن الحِكم في نزول القرآن الكريم مُنجماً آيات بعد آيات : ذلك أنَّه قد كانت تعرض بعض أمور ووقائع يَتَوقَّف فيها حتى يُنزل الله تعالى فيها آيات ، يُبين حكمه فيها سبحانه وتعالى ، ومن هذا ما جاء في الحديث عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : الحمد لله الذي وسِعَ سمعه الأصوات كلها ، لقد جاءت المجادِلة خَوْلة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جانب البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ

ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ رواه البخاري كما في (التيسير).

وذلك أَنَّ زوجها أوس بن الصامت ظاهر منها ، أي: قال لها أَنْتِ عليَّ كظهر أُمِّي ، هي محرمة عليه كأمِّه ، وهو أَوّل ظهارٍ وقع في الإسلام ، فأنزل الله تعالى فيه آيات يبين حكمه في ذلك.

روى أبو داود وغيره ، عن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت: (ظاهر مني زوجي أَوْس بن الصامت ، فجئتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشكو إليه ـ وفي رواية (مسند) أحمد: فجلستُ بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم فذكرتُ له ما لقيتُ منه ، وجعلتُ أشكو إليه ما ألقىٰ من سوء خُلُقه ـ.

فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يا خويلة ابنُ عمك شيخ كبيرٍ ، فاتقي الله فيه».

قالت: فوالله ما خرجتُ حتى نَـزَل فيَّ قرآن ، فتغشَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يتغشَّاه ـ أي: حالة نزول الوحي ـ ثم سُرِّي عنه ، فقال لي: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ـ زوجك ـ قرآن ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مُريه فليعتق رقبة».

قالت: فقلت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فليصم شهرين متتابعين».

قالت: فقلت: والله إنَّه لشيخ كبير ماله من صيام.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فليطعم ستين مسكيناً وَسْقاً من تمر».

قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده.

قالت: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنَّا سنعينه بفَـرَق من تمر».

قالت: فقلت: يا رسول الله وأنا سأعينه بفَرَق آخر.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قد أصبت وأحسنتِ، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيراً».

قالت: ففعلت) هذا لفظ الإمام أحمد في (المسند) وروى أبو داود نحوه كما بينت في أوله.

وروى ابن ماجه، والبيهقي وغيرهما، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إنِّي لأسمع كلام خولة بنت ثعلبه ويخفىٰ عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك.

فما برحتْ حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت.

موقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع خولة حين استوقفته في الطريق وتكريمه لها وإصغاؤه إليها

روى ابن أبي حاتم ، والبيهقي في (الأسماء والصفات) عن ابن زيد قال: (لقي عمر بن الخطاب امرأةً يقال لها خولة وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ، ودنا منها ، وأصغى إليها رأسه ، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها ، وانصرفت.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حَبَستَ رجال قريش ـ أي: الذين كانوا ماشين مع عمر رضي الله عنه ـ حبستَ رجال قريش على هذه العجوز؟ ـ والمعنى: أنه يُمكن أن يكل عمر قضاء حاجتها إلى غيره دون أن يقف هذا الوقوف الطويل؛ ومعه رجال من قريش.

فقال له عمر رضي الله عنه: ويْحكَ ، وتدري مَنْ هذه؟

قال: لا.

فقال عمر : هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سماواته ، هذه خولة بنت ثعلبه ، واللهِ لو لم تنصرف حتى الليل ما انصرفتُ حتى تقضيٰ حاجتها) ، كذا في (الدر المنثور) وغيره.

ومن جملة ذلك[1]، ما رواه ابن أبي حاتم[2] بسنده ، عن معاوية بن حَيْدة القشيري عن أبيه ، عن جده ، أَن أعرابياً قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أقريب ربنا فنناجِيه ، أم بعيد فنناديه؟

فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: لأن الوحي نزل عليه ـ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي: فليستجيبوا لطاعتي وعبادتي وامتثال أوامري سبحانه ، وقد أمر عباده بالدعاء كما قال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي: فعليهم أن يدعوه سبحانه وأَنْ يوقنوا بالإجابة.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ ربكم حَييٌّ كريم يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردَّهما صِفْراً» وفي رواية: «ويستحيي أن يبسط العبد يديه إليه فيردهما خائبتين»[3].

---

(١) أي: من جملة الحكم في نزول القرآن الكريم منجماً.

(٢) كذا في (تفسير) ابن كثير ، وعزاه في (الدر المنثور) إلى ابن جرير ، والبغوي في (معجمه) ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه من طرق أخرى.

(٣) رواه أصحاب السنن ، والإمام أحمد في (مسنده).

قول الله تعالى :

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴾

كان المشركون يحاولون إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع الأذىٰ ، ويسعون جهدهم في منعه عن تبليغ الرسالة والدعوة إلى الله تعالى ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحزن لذلك ويصعب عليه ذلك ، فتنزل الآيات الكريمة مُبشرة له بالنصر عليهم ، وبتأييده وحفظه ، وعناية الله تعالى به ، وأنَّه سبحانه يخذل أعداءه ويكبتهم ، ويردُّهم على أعقابهم خاسئين خائبين .

قال تعالى : ﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي : انتظر حكم الله تعالى ، الذي وعدك بالنصر عليهم ولا تستعجل ، ولا يهمنَّك أمرهم ، ولا تبال لهم ، فإنَّه سبحانه حافظك ومتولِّيك ومؤيدك ، وهو الذي يكفيك أذاهم ، ويقيك شرَّهم وضرهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي : اصبر على أذاهم ، ولا يهمنك أمرهم ، فإنك بمرأى من الله تعالى ، وفي عنايته ورعايته ، وكلاءته وحفظه ووقايته ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أي : فأنت يا رسول الله في عصمة الله تعالى لك وكفايته .

وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ يعني أَنَّ الكفار شأنهم الإثم، وفعل المعاصي والمنكرات، وكفور نعم الله تعالى عليهم، وجحودهم الحق بعد ما تبيَّن لهم، بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، ومعاينة آيات الله تعالى النفسية والآفاقية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾.

ويرحم الله تعالى القائل:

فوا عجباً كيف يُعصىٰ الإلٓه ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينةٍ ... أبداً له شاهد
وفي كل شيءٍ له آية ... تدل على أنه واحد

ويرحم الله تعالى القائل:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك جل وعز
عيون من لُجين شاخصات ... بإحداق هي الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

حكي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، أَنَّ بعض الزنادقة ـ أي: المنكرين لوجود الخالق جل وعلا ـ سألوه عن وجود الباري

تعالى ـ أي: عن الدليل على وجوده سبحانه وتعالى.

فقال لهم: دعوني ـ أي: اتركوني ـ فإني مفكِّر في أمرٍ قد أُخبرت عنه: ذكروا لي أَنَّ سفينة في البحر مُوقَرَةً ـ أي: مملوءة بالبضائع والأمتعة ـ فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها، ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء، وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام، حتى تتخلَّص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها، من غير أَن يسوقها أحد ـ أي: حتى تصل إلى الشاطىء بسلام ـ.

فقالوا له: هذا شيء لا يقوله عاقل.

فقال لهم: وَيْحكم هذه الموجودات وما فيها من العالم العلوي والسُّفلي، وما اشتملتْ عليه مِن الأشياء المحكمة؛ ليس لها صانع؟!!! ـ أي: هل يمكن أن يكون ليس لها خالق مدبِّر لها، ومُسَيِّرها؟ ـ فبُهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه رحمه الله تعالى.

قـول الله تـعـالـى:

﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالمداومة على ذكر الله تعالى في جميع الأوقات ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ **فالبكرة** هي: أول النهار، **والأصيل**: آخره ومع ذلك فإنَّ الأصيل كثيراً ما يُطلق على ما بعد الزوال إلى الغروب، ولذلك جاء في الحديث ما يدل على أَنَّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه:

فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر الله تعالى على كلِّ أحيانه) ـ أي: أوقاته ـ رواه مسلم، وأصحاب السنن، كما في (الفتح الكبير).

وفي هذه الآية الكريمة تنبيه لأمته صلى الله عليه وآله وسلم؛ وتحريض لهم؛ على متابعته صلى الله عليه وآله وسلم في الإكثار مِنْ ذكر الله تعالى، والمداومة عليه في جميع الأوقات.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وقد بين سبحانه فضل الذاكرين له فقال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ فإذا ذكروه سبحانه ذكرهم، وفي ذكره لهم ينالون الشرف الأكبر، والعِزَّ الأوفر، والمقام الرفيع.

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإنْ تقرَّب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ـ أي: ضعف ما تقرب إليَّ ـ وإن تقرب إليَّ ذرعاً تقرَّبت إليه باعاً ـ أي: ضعف ما تقرب إليَّ ـ وإنْ أتاني يمشي أتيته هرولة» جلَّ وعزَّ سبحانه وتعالى.

فَمَنْ ذكر الله تعالى في ملأ ـ أي: جمع ـ فعظمه ومجَّده سبحانه، أو حمده أو أثنى عليه، أو سبحه، أو كبره، أو هلَّل؛ أو نحو ذلك: فإنَّ الله تعالى يذكره في ملأٍ خير من ذلك الملأ: أعلى رتبة، وأكثر عدداً، وأكرم منزلةً.

وفي هذا إعلام مِنَ الله تعالى للملأ الأعلى بفضل هذا الذاكر ، وإعلان بشرفه وبكرامته على الله تعالى ، وأيُّ شرف أعظم من هذا الشرف ، فإنه سبحانه شرَّفك أيها الذاكر بذكرك له سبحانه ، وشرَّفك بذكره لك ، وإنَّ ذكره لك أكبر من ذكرك له سبحانه وتعالى .

قال الله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ .

فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ من عدة وجوه أنه قال في قوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال : (ولذكر الله لعباده إذا ذكروه أكبر مِن ذكرهم إيَّاه)[1] .

وروى ابن أبي شيبة ، وعبد الله بن أحمد في (زوائد الزهد) وابن جرير ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال : (ذكر الله العبدَ أكبر من ذكر العبد لله تعالى) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ قال : «ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إيَّاه»[2] .

فإكثار المؤمن مِن ذكره لله تعالى فيه استكثار مِن ذكره تعالى للمؤمنين ، وإنَّ ذكره سبحانه لعبده المؤمن فيه البشارة الكبرىٰ ، والفرحة العُظمىٰ .

فهذا أبي بن كعب رضي الله عنه لما أخبره النبي صلى الله عليه

---

(١) كما رواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي وغيرهما ، كذا في (الدر المنثور) .

(٢) رواه ابن السني ، وابن مردويه ، والديلمي كما في (الدر المنثور) .

وآله وسلم أن الله تعالى قد ذكره باسمه فَرِح وسُرَّ سروراً كبيراً ـ وحُقَّ له ذلك.

روى الإمام أحمد بإسناده، عن أبي حَبَّة البدري رضي الله عنه قال: (لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: «يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً» ـ أي: أبيّ بن كعب رضي الله عنه ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ: «إنَّ جبريل أمرني أَنْ أقرئك هذه السورة».

فقال أبيّ: وقد ذكِرتُ ثَمَّ ـ أي: هناك في الملأ الأعلى يا رسول الله؟ ذكرني الله تعالى.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم» أي: ذكرك الله تعالى في الملأ الأعلىٰ.

قال: فبكى أُبيّ) ـ أي: فرحاً.

وفي رواية لأحمد، عن أنس رضي الله عنه قال أبيّ: يا رسول الله وسمّاني الله لك؟ ـ أي: ذكرني باسمي؟

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم» فبكى ـ أي: من شدة الغِبطة والفرح، بفضل الله تعالى عليه.

كما جاء في رواية للإمام أحمد، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أُمرتُ أَنْ أقرأ عليك سورة كذا وكذا».

فقلت: يا رسول الله وقد ذُكرتُ هناك؟ ـ أي: في الملأ الأعلى.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

فقال رجل: يا أبا المنذر فرحتَ بذلك؟

فقال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وفي رواية للطبراني، عن أبي بن كعب قال: يا رسول الله وذكرتُ هناك؟

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم باسمك ونسبك في الملأ الأعلى» أي: ذُكر أبيّ بن كعب باسمه واسم أبيه.

وروى الشيخان واللفظ للبخاري، عن أنس رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ: «إنَّ الله أمرني أَنْ أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ﴾» ـ أي: السورة ـ.

قال: وسمَّاني؟ قال: «نعم» فبكى.

وروى أيضاً عن قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي: «إنَّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك القرآن».

فقال أبي: آلله سماني لك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الله سماك» فجعل أُبي يبكي).

قال قتادة: فأثبت أنه قرأ عليه ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: سورة البينة.

وروى البخاري أيضاً، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي بن كعب: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن».

قال أبيّ: آلله سماني لك؟

قال: «نعم».

قال: وقد ذكرتُ عند رب العالمين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم».

فذرفت عيناه ـ أي: فبكى أُبي فرحاً بفضل الله تعالى ورحمته.

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضل الذين يجتمعون في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم، ومِنْ ذلك الفضل أنَّه سبحانه يذكرهم عنده جلَّ وعلا:

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرَب الدنيا ـ أي: فرَّج عنه كربة من كرب الدنيا ـ نـفَّسَ الله عنه كربة من كُـرَب يوم القيامة ـ فإنها أشدّ وأعظم ـ.

ومَنْ يَسَّر على مُعسر: يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة.

ومن ستر مسلماً: ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة.

والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

ومَنْ سلك طريقاً يلتمس فيه علماً: سهَّل الله تعالى له به طريقاً إلى الجنة.

وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم: إلاَّ نزلتْ عليهم السكينة، وغَشِيتهم الرحمة ـ أي: الرحمة الإلَهية الخاصة ـ وحَفَّتهم ـ أي: أحاطتْ بهم ـ

الملائكة ، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده ، ومَنْ أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وذِكرُ الله تعالى لعبده المؤمن هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى بين الملائكة ، ومباهاته به ، وتنويهه بذكره ، وبذلك ينال العبد الشرف الأكبر ، وعزَّ الدنيا والآخرة.

وقد جاء في (صحيح) مسلم أيضاً ، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما ، كلاهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ لأهل ذكر الله تعالى أربعاً: تنزل عليهم السكينة ، وتغشاهم الرحمة ، وتحفُّ بهم الملائكة ، ويذكرهم الربُّ فيمن عنده».

ومن فضائل المداومة على ذكر الله تعالى أنَّـهُ تحييْ به القلوب:

روى البخاري ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَثَل الذي يذكر ربَّه والذي لا يذكر ربه: مَثَل الحيّ والميت».

فمن أكثر ذكر الله تعالى كملتْ له حياة قلبه ، وبحياة القلب يَحيى الجسد بالعمل الصالح؛ المقرِّب إلى الله تعالى.

روى الترمذي ، والإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعاءً حفظته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا أدَعه ـ أي لا أتركه ـ: «اللهم اجعلني أُعظم شكرك ، وأُكثر ذكرك ، وأتَّبِعُ نصِيْحَتَكَ ، وأحفظ وصِيَّتك» أي: أعمل بما أمرتني به ، وأنتهي عما نهيتني عنه.

وبذكر الله تعالى يفتح الله أقفال القلوب ، ويُدخل فيها ما يشاء من أنوار الإيمان واليقين والعرفان:

روى ابن السني في (عمل اليوم والليلة) ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا سمعتم المؤذن يؤذن فقولوا:

اللهم افتح لنا أقفال قلوبنا بذكرك ، وأتمم علينا نعمتك من فضلك ، واجعلنا من عبادك الصالحين».

وإنما أرشدنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذا الدعاء بهذه الأمور الثلاثة عند الأذان لأنَّه وقت إجابة.

فقد روى أبو داود وغيره ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ساعتان تُفتح فيهما أبواب السماء ، وقلَّما تُردُّ على داعٍ دعوته: عند حضور النداء ـ أي: الأذان ـ والصف في سبيل الله تعالى» أي: في ساحة الجهاد.

ومن فضائل ذكر الله تعالى أنه تطمئن به القلوب وتشفى من سقمها:

قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ والطمأنينة هي: سكون القلب إلى ذكر الله تعالى ، وارتياحه ، وعدم اضطرابه ، وقَلَقه وارتيابه ، فإنَّ ذكر الله تعالى يعطي القلب رُوحاً وأُنساً وسكينة ، وبه يُشفىٰ مِن سقمه ، وهمِّه وغمِّه ، وحزنه وكربه.

روى الديلمي ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ذكر الله تعالى شفاء للقلوب».

كما أَنَّ بذكر الله تعالى تَذهب القسوة والغفلة ، وتعتري القلب الرقَّة واللّطافة والخشوع :

روى الترمذي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى ، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله عز وجل قسوة للقلب ، وإنّ أبعد الناس منَ الله تعالى القلب القاسي» .

فقُل لقاسي القلب الذي يَشكو عَدَم حضور قلبه ، وعدم خشوعه لربه ـ قل له : أكثِرْ من ذكر الله تعالى ، فهو الدواء الشافي والعِلاج الوافي .

روى مسلم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبَنَا الله تعالى بهذه الآية : ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلاَّ أربع سنين . ا هـ .

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما إذا تلا هذه الآية قال : بلى ياربِّ ، بلى يا ربِّ ـ أي : خشعنا .

فالمؤمن معاتب من الله تعالى في هذه الآية الكريمة إذا لم يخشع قلبه لذكر الله تعالى ، سواء كان ذلك في صلاته ، أو تلاوته للقرآن الكريم ، أو تسبيحه ، أو تحمديه ، أو تكبيره ، أو تهليله ، أو في صلاته على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما وراء ذلك ، فإنه كله من ذكر الله تعالى .

فأخرج أيها المؤمن نَفْسَك مِن العِتابِ ، واسعَ جاهداً ما استطعت أن تكون من الخاشعين ، وتذكَّر قول الله تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ

عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

فأوَّلُ وصف وصف الله تعالى به عباده المؤمنين هو الخشوع في صلاتهم ـ فافهم .

روى الإمام أحمد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوحيُ يُسمع عند وجهه كدَويّ النحل ، فلبثنا ساعة ـ مدة ، والوحي قد نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم ـ فلما فرغ استقبل القبلة ورفع يديه وقال : «اللهم زدْنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تُهنَّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارضَ عنا وأَرضنا» ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم : «لقد أُنزل عليَّ عشر آيات مَنْ أقامهنَّ ـ أي : تحقَّق بهن ـ دخل الجنة» ثم قرأ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ حتى ختم العشر) .

ورواه الترمذي والنسائي ، كما في (تفسير) الحافظ ابن كثير .

❊ ❊ ❊

قـول الله تعـالـــى :

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ ﴾ هذا كقوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ .

والتهجُّد يُطلق على الصلاة في الليل بعد استيقاظ من النوم ، وذهب أكثر العلماء إلى أنَّ ذلك كان واجباً عليه صلى الله عليه وآله وسلم زيادة على الفرائض المكتوبة ، ومعنى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي : زيادةٌ واجب عليك ، فوق الفروض الخمسة ، فإن النفل في اللغة معناه الزيادة قال تعالى : ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةً ﴾ الآية .

وبهذا أي : بقوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ استدل أكثر العلماء على أنَّ التهجد كان واجباً عليه صلى الله عليه وآله وسلم دون أمته .

قال الحافظ ابن كثير : واختلف في معنى قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فقيل معناه : إنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله تعالى ، واختاره ابن جرير .

وقيل : إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنَّه قد غفر له صلى الله عليه وآله وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : وغيره صلى الله عليه وآله وسلم من أمته إنما تكفِّر

عنه صلواته النوافل ـ أي: تكفر الذنوب التي عليه ـ قاله: مجاهد، وهو في (المسند) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه. اهـ.

قلت: وهذا الذي هو في (مسند) الإمام أحمد كما يلي:

روى الإمام أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، الطبراني، عن أبي أُمامة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ قال: (كانت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم نافلة، ولكم فضيلة).

وفي لفظ: (إنما كانت النافلة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كذا في (الدر المنثور).

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾:

روى الإمام أحمد، والترمذي وحسنه، والبيهقي، وغيرهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وسُئل عنه صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عن المقام المحمود ـ فقال: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي» كذا في (الدر المنثور).

وروى ابن جرير، والبيهقي في (الشعب) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المقام المحمود هو الشفاعة» أي: الشفاعة العظمىٰ العامَّة لجميع أهل الموقف، ليخلِّصهم من أهوال الموقف، وطُوله، وكُرباته، وشدائده، وأوَّل مَنْ يشفع بهم أمته صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى الإمام أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم وغيرهم، عن كعب بن مالك رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يُبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا

وأمتي على تَلٍّ ، ويكسوني ربي حُلَّة خضراء ، ثم يُؤذن لي أَنْ أقول ما شاء الله أَنْ أقول ، فذلك المقام المحمود» أي : فيحمد الله تعالى بمحامد يعلِّمه الله تعالى إياها ، وهو ساجد ، ثم يقول الله تعالى له صلى الله عليه وآله وسلم : «يا محمد ارفع ، وقُل يُسمع لك ، وسَل تعطه ، واشفع تُشفَّع» .

وقد تكلمت مفصلاً على أنواع شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ، وأوردت جملة من الأحاديث الواردة في ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) وكتاب (التقرب إلى الله تعالى) وغيرهما والحمد لله .

وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ .

روى أبو داود ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول عند مضجعه : «اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم ، وبكلماتك التامَّات : من شر كل دابَّة أنت آخذ بناصيتها .

اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم .

اللهم لا يُهزَم جندك ، ولا يُخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجدُّ ، سبحانك اللهم وبحمدك» .

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من الليل قال : «لا إله إلاَّ أنت سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك .

اللهم زدني علماً ، ولا تُزغ قلبي بعد إذا هديتَني ، وهبْ لي من

لدنك رحمة إنّك أنتَ الوهاب» رواه أبو داود كما في (التيسير).

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يُكثر من التسبيح في الليل كما كان يُكثر من التسبيح في النهار:

جاء في الحديث، عن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنتُ أخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهاري، فإذا كان الليل آويت إلى باب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبت عنده ـ أي: عند الباب ـ قال: فلا أزال أسمعه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «سبحان الله، سبحان الله، سبحان ربي» حتى أملّ، أو تغلبني عيني فأنام.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم لي يوماً: «يا ربيعة سلني فأعطيك»؟

فقلت: أنظرني حتى أنظر ـ وتذكرتُ أَنَّ الدنيا فانية منقطعة، فقلتُ: يا رسول الله أسألكَ أن تدعو الله أَنْ ينجيني من النار، ويدخلني الجنة، ـ أي: حتى أكون من رفقائك في الجنة كما يدل على ذلك رواية مسلم التي ستأتي قريباً.

قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «مَن أمرك بهذا» وهذا يدل على أنه سأله المرافقة في الجنة كما سيأتي.

قال ربيعة: فقلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمتُ أَنَّ الدنيا منقطعة فانية، وأنتَ من الله بالمكان الذي أنتَ فيه، فأحببت أَنْ تدعوا الله لي ـ أي: بذلك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني فاعل، فأعنّي على نفسك بكثرةِ السجود».

قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى: رواه الطبراني في (الكبير) من رواية ابن إسحق واللفظ له، قال: ورواه مسلم، وأبو داود مختصراً ولفظ مسلم:

قال ربيعة: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآتيه بوَضوئه وحاجته.

فقال لي: «سلني».

فقلت: أسألك مُرافقتك في الجنة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أو غير ذلك».

فقلت: هو ذاك ـ أي: هذا طلبي ولا أحيد عنه ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأعنّي على نفسك بكثرة السجود».

اللهم إنا نسألك إيماناً لا يرتدُّ، ونعيماً لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد، بجاهه عندك يا رب العالمين ـ آمين.

* * *

تنبيه وتذكير

قد يقول بعض الناس متعجباً أو منكراً لتوسلي في الدعاء بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في مناسبات متعددة ، فهل هناك دليل على ذلك؟

فالجواب أن الله تعالى قال : في وصفه لموسى الكليم : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ فأثبت الله الوجاهة لموسى عليه السلام عند الله فموسى عليه السلام ذُو وجاهة عظيمة ، ومكانة كبيرة عند الله تعالى .

وقال سبحانه في عيسى عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ فأثبت الله تعالى لعيسى عليه السلام الوجاهة في الدنيا والآخرة ، فهو ذُو وجاهة عظيمة عند الله تعالى .

فإذا كان الأمر كذلك ، فلا ريب ولا شكَّ أنَّ الوجاهة عند الله تعالى في الدنيا والآخرة هي ثابتة قطعاً من باب أولى لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، الذي هو إمام الأنبياء والمرسلين، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، ولا شك أَنَّ وجاهته صلى الله عليه وآله وسلم التي أعطاها الله تعالى إياه هي أعظم من وجاهة كل وجيه عند الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فإنَّه أحبُّ الخلق إلى الله تعالى ، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى قطعاً .

روى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا ، ولواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» أي: يقول ذلك صلى الله عليه وآله وسلم تحدُّثنا بنعمة الله تعالى عليه.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنتُ أنا إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر» رواه الترمذي.

وفي الحديث الذي رواه الدارمي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَلَا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أوّل شافع وأوّل مشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أوّل من يحرِّك بحلق الجنة ولا فخر ، فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر».

وروى الدارمي في (سننه) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنا قائد المرسلين ولا فخر ، وأنا خاتم النبيين ولا فخر ، وأنا أوّل شافعٍ وأوّل مشفَّع ولا فخر».

فأعظم الوجهاء عند الله تعالى ، وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرحم الله تعالى القائل:

إلَهي توسَّلنا بجاه محمدٍ ﷺ لعُليـاكَ فـي أمـرٍ تَعسَّـر حَلُّـه
إذا ضاق صدري والهموم تزايدتْ فليس لها إلاّ الذي عمَّ فضله

آمين

قال الحافظ المنذري: الترغيب في صلاة الحاجة ودعائها:

ثم روى عن عثمان بن حُنيف رضي الله عنه (أَنَّ أعمى أَتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله ادعُ الله أَنْ يكشف لي عن بصري.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْأدعُك» أي: بأن يتركه فيصبر ويعظم له أجره.

فقال: يا رسول الله إنه شقَّ عليَّ ذهاب بصري.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فانطلق فتوضأ، ثم صَلِّ ركعتين ثم قل:

اللهم إني أسألكَ وأتوجَّه إليك بنبيك محمد ﷺ نبيِّ الرحمة، يا محمد إني أتوجَّه إلى ربي بك أَنْ يكشف لي عن بصري، اللهم شَفِّعْهُ فيَّ».

فرجع وقد كشف الله عن بصره).

قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي واللفظ له، وابن ماجه، وابن خُزيمة في صحيحه، والحاكم وقال: على شرطهما.

قال: وليس عند الترمذي «ثم صل ركعتين» وإنما قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يدعو بهذا الدعاء فذكره بنحوه ثم قال

الحافظ المنذري: ورواه الطبراني وذكر في أوله قصة:

وهو أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه في حاجة له، وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ـ أي: لكثرة اشتغاله في أمور الرعية العامة ـ فلقي الرجل عثمان بن حنيف، فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حُنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ات المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّ الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضي حاجتي» وتذكر حاجتك، ورُح إليَّ ـ أي: ائتني ـ حتى أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان بن حنيف، ثم أتى باب عثمان بن عفان، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان، فأجلسه معه على الطنفسة، وقال له: حاجتك؟

فذكر حاجته، فقضاها له عثمان بن عفان، ثم قال له: ما كانت لك من حاجة فائتنا ـ أي: حتى نقضيها لك.

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله تعالى خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إليَّ حتى كلمتَـهُ فيَّ؟

فقال له عثمان بن حنيف: والله ما كلمته فيك، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأتاه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوْتصبر»؟

فقال: يا رسول الله إنّه ليس لي قائد ـ أي: يقوده ويمشي معه ـ وقد شق عليَّ.

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ائت الميضأة فتوضأ، ثم صلِّ ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات».

فقال عثمان بن حنيف: فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرٌّ قَطُّ.

قال الطبراني بعد ذكر طرقه: والحديث صحيح. اهـ.

وعزاه في (الجامع الصغير) إلى الترمذي وابن ماجه والحاكم.

قـول الله تـعالـى:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ والمعنىٰ: إنَّ هؤلاء الكفرة هم يحبون العاجلة، وهي: الدنيا وزخارفها وأموالها، ومن شدة حبهم لها وانهماكهم فيها فإنَّ ذلك دفعهم إلى التهالك عليها، والتنافس في جَمْع أموالها، والانشغال في شهواتها ولذاتها، وكأنهم خالدون فيها أبداً، فعمُوا وصَمُّوا عما هنالك مما يصيرون إليه لا محالة، وهو اليوم الآخر يوم القيامة، ذلك اليوم الثقيل بشدائده وكرباته، وأهواله وطوله، وشدة حرِّه.

وفي هذا تحذير للمؤمن مِنْ أَنْ تشغله أعماله في الدنيا عن الاستعداد والعمل للآخرة، فينهمك ويهيم في الدنيا، فتكون الدنيا

عنده هي أكبر همه ، ومبلغ علمه ، وغاية رغبته ، وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته مِنْ ذلك ، وبَيَّن لهم خطر ذلك وعواقب ذلك :

روى الترمذي وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مَنْ كانت الآخرةُ هَمَّه ـ أي : أكبر همه ـ جعل الله غِناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة ـ أي : منقادة له غير مستصعبة عليه ـ ومن كانت الدنيا همَّه ـ أي : أكبر همه ومقصوده ـ جعل الله تعالى فقره بين عينيه ، وفرَّق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلاَّ ما قدِّر له ، فلا يمسي إلا فقيراً ، ولا يصبح إلا فقيراً» ـ أي : فقير النفس يكدُّ ويتعب وراء جمع المال ، وإن كان عنده ما يكفيه وزيادة ، فتراه كأنه فقير ذو حاجة ، وهمُّه الأكبر جمع المال وحطام الدنيا .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «وما أقبل عبد على الله تعالى بقلبه إلاَّ جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالودِّ والرحمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع» .

وروى الترمذي أيضاً ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يقول الله تعالى : ابنَ آدم تفرَّغ لعبادتي أملأ صدرك غِنى ، وأسدُّ فقرك ـ أي : ييسر عليه رزقه في الدنيا ـ وإن لا تفعل مَلأتُ يديك شُغلاً ، ولم أسُدَّ فقرك» كذا في (التيسير) .

تحذيره صلى الله عليه وآله وسلم أمته من التنافس على الدنيا:

روى الشيخان، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فصلَّى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال:

«إني فَرَط لكم[1]، وأنا شهيد عليكم، وإنِّي والله أنظر إلى حوضي الآن ـ أي: وهو على المنبر ـ وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها» أي: في الدنيا، وجمع حطامها، حتى تشغلكم عن دينكم.

وقد بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ الحبَّ الشديد للمال، والحرص عليه مُفسد لدين المسلم:

جاء في الحديث، عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ذئبان جائعان أُرسِلا في غنم بأفسد لها من حِرص المرء على المال والشرف لدينه»[2].

والمراد بحب الشَّرَف حب التفاخر والتظاهر، والصيت بين الناس في الدنيا ومدحهم له.

---

(١) قال في (التيسير): الفَرَط هو السابق في السير إلى الماء، والمراد إنِّي لكم سابق، فإذا قدمتم وجدتموني أنتظركم ـ أي: على الحوض. ا هـ صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان في (صحيحه).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ذئبان ضاريان جائعان، باتا في زَرِيبة غنم ـ أي: مكان بيت غنم ـ أغفلها أهلها، يفترسان ويأكلان؛ بأسرع فيها فساداً من حبّ المال والشَّرَف في دين المرء المسلم»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما ذئبان ضاريان في حظيرة، يأكلان ويفسدان بأضرَّ فيها من حب الشرف وحب المال في دين المرء المسلم»[2].

فحب المال إذا اشتدَّ وقوي في قلب صاحبه، وكذا حب الشَّرَف والفخر والتظاهر والتعالي فإنَّ ذلك يفسِد على المرء المسلم دينه فساداً كبيراً؛ أشد من إفساد الذئبين الضاريين في الغنم، فَيحمل حب المال على البخل والشح به، وترك الزكاة التي جعلها الله تعالى حقاً للسائل والمحروم.

قال الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

ويحمله ذلك ـ أي: حب المال ـ على قطيعة الرحم وعدم صلتهم، ويحمله حب المال على الجمع والمنع، فلا يبالي في جمع المال من طريق حلال أو حرام، أوْ أَنْ يغشَّ ويكذب، وأن يرابي أو يحتال في طريقة الربا بأساليب ملتوية، تخيل إليه أنه لم يراب.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الطبراني واللفظ له، وأبو يعلى بنحوه، وإسنادهما جيد. ا هـ.

(٢) رواه البزار بإسناد حسن كما في: (ترهيب) المنذري.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ ﴾ ـ أي: اعلموا ـ ﴿ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ ﴾ ـ أي: عن الربا ـ ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

روى الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» ـ أي: المهلكات ـ.

قالوا: يا رسول الله وما هنَّ؟

قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عذاب آكل الربا في عالم البرزخ؛ قبل عذابه في الآخرة:

فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «رأيتُ الليلة رجلين ـ أي: أتياني ـ فأخرجاني إلى أرض مقدسة ـ أي: طاهرة ـ فانطلقنا ـ أي: مشينا نتجوَّل ـ حتى أتينا على نهر من دم، فيه رجل قائم، وعلى شَطِّ النهر رجل بين يديه حجارة، فأَقبل الرجل الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج ـ أي: من النهر ـ رمى الرجلُ ـ أي: رماه الرجل ـ بحجر في فِيه ـ أي: فمه ـ فردَّه حيث كان، فجعل ـ أي: الرجل الذي في نهر

الدم ـ كُلَّما جاء ليخرج رُمي ـ أي: رماه الرجل ـ في فيه بحجر، فيرجع كما كان.

فقلت: ـ أي: قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ ما هذا الذي رأيته في النهر؟.

قال: آكل الربا» قال الحافظ المنذري: رواه البخاري هكذا في البيوع مختصراً. اهـ.

وقد ذكرت الحديث بتمامه في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) وغيره، وفيه الإخبار عن عذاب العصاة في عالم البرزخ ـ أي: عالم القبر.

قـول الله تـعـالـى:

﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

﴿ وَيَذَرُونَ ﴾ ـ أي: يتركون ـ ﴿ وَرَآءَهُمْ ﴾ **إمَّا المراد** بالوراء هنا الأمام والمعنى: ويتركون الاستعداد والتَّزَود بالتقوى لذلك اليوم الثقيل، وهو يوم القيامة الذي يستقبلونه ويصيرون إليه لا محالة، فهو أمامهم سوف يَشهدونه ويعانونه.

وهذا نظير الوراء في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فالمراد بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم ﴾ أي: أمامهم، لأنَّ الملك الغاصب للسُّفُن الصالحة كان أمامهم لا خلفهم، ولذلك راح الخضر عليه السلام يَعيبها، فإذا مرَّت على الملِك الغاصب رآها معيبة فيتركها، فإنه كان يأخذ كل سفينه ـ أي: صالحة غير معيبة ـ غصباً.

وإمّا المراد بالوراء في قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ خلفهم ـ أي: يذرون يوم القيامة خلفهم غير عابئين به، ولا مهتمين بأمره، وما فيه من الأهوال والشدائد، والكربات والمخاوف، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ فهو يوم مُتعب ومُرهق بكرباته وأهواله وشدة حرّه، وطول موقفه، لا يأمن مِنْ ذلك إلاَّ المؤمن الصادق، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ فيه الحث والتحريض على الاهتمام الشديد بيوم القيامة، والاستعداد له، والتزوّد له بالأعمال الصالحة، وتقديم العاقل لذلك اليوم المستقبل ـ المحقق وقوعه ـ ما يجب عليه تقديمه لذلك اليوم، جادّاً في ذلك، غير مهمل ولا كسول ولا متهاون.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

فإذا كان العاقل يهتم بالعمل لمستقبله الدنيوي الذي يُحتمل أنْ يُدركه أَوْ لا يدركه؛ بأَنْ يموت قبله، إذا كان الأمر كذلك فالاستعداد والجدّ في العمل لغدِه المستقبل المحقق الوقوع وهو غد الآخرة؛ الذي تصير إليه الخلائق كلهم فالعمل لذلك أهمُّ وأوجب، وأعظم، فإنه المستقبل الباقي المؤبَّد.

ولذلك نبَّه الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

فأمرهم بالتقوى أوّلاً ، وأمرهم بالتقوى ثانياً: ليبين لهم أن العِدَّة لذلك الغد ، والتزود لذلك الغد الآخرة هو التقوى .

قال الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ ﴾ أي: زينة لكم فتسترون به عوراتكم ، وتتجمَّلون به في حياتكم الدنيا ، ثم نبَّههم إلى لباس الآخرة الذي هو أهمُّ؛ وهو لباس التقوى فقال تعالى: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ .

فالتقوى وقاية من كل سوء ومكروه ، وهي: امتثال أوامر الله تعالى ، واجتناب ما نهى عنه ، فمن جاء يوم القيامة وهو لابس لباس التقوى أمِن وسلم ، وأُكرم وغنم .

قال الله تعالى: ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ﴾ ـ أي: نترك ـ ﴿ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ ـ أي: باقين فيها ـ وهو جمع جاثٍ .

قوله تعالى: ﴿ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ .

في هذه الآية الكريمة وصَفَ الله تعالى ذلك اليوم ـ أي: يوم القيامة ـ بأنه ثقيل ، لما فيه من ثقل أهواله وكرباته وطوله وشدائده .

وقد وصفه سبحانه في آية أُخرىٰ بأنَّه يوم عظيم قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

فهو يوم عظيم الهول والشدائد والكرب ، حتى أَنَّ أهل الموقف ليعرق أحدهم حتى يَغيب في رشحه إلى أنصاف أُذنيه .

روى الشيخان واللفظ للبخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم في رشحه ـ أي: عرقه ـ إلى أنصاف أذنيه».

ورواه الإمام أحمد ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقوم الناس لرب العالمين ، لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إنَّ العرق ليلجم الرجال ـ أي: الأقوياء الأشُد ـ إلى أنصاف آذانهم» أي: وذلك من شدة الهول والحر والكرب.

وروى مسلم ، عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تُدنىٰ الشمس يوم القيامة مِنَ الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل».

قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض ، أم الميل الذي تكتحل به العين.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق: فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حَقْويه ـ مَوْضع شَدِّ الإزار أي: نصفه ـ ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» وأشار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده إلى فيه ـ أي: فمه صلى الله عليه وآله وسلم.

فلا يأمن من تلك الأهوال والشدائد إلاَّ عباد الله المتقون ، فَإِنَّ الله تعالى يُزلف لهم الجنة ـ أي: يقربها إليهم في مواقف الآخرة ، بحيث يرونها قريبة منهم ، ويكونون على مشهد منها لكي

يستبشروا ، ويبتهجوا بالنظر إلى خضارها ونضارها ، ويشمُّوا مِنْ طيب رائحتها ، وتطمئن قلوبهم بأنهم صائرون إليها ، وبذلك تذهب عنهم الهموم والمخاوف والمكاره.

قال تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي : قُرِّبت لهم وهم في الموقف ، فهي غير بعيدة عنهم.

وقال تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ريح الجنة يُوجد مِن مسيرة ألف عام ـ أي : يُشَمّ من بُعْد ألف عام ـ واللهِ لا يجد ريحها عاقٌّ ـ أي : لوالديه ـ ولا قاطع رحم» رواه الطبراني وغيره.

وجاء في (سنن) الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في دعائه بعد فراغه من صلاة قيام الليل متهجداً :

«اللهم يا ذا الحبل الشديد ، والأمر الرشيد ، أسألك الأمن يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، الركَّع السجود ، الموفين بالعهود ، إنّك رحيم ودود ، وإنَّك تفعل ما تريد» الحديث بطوله.

وفي هذا تعليم لأمته صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألوا الله تعالى الأمن يوم الوعيد ، لأنه يوم عظيم ويوم ثقيل.

وقد فصلت الكلام على عالم الموقف وشدائده وكُرباته ، وما يأمن به العبد من تلك الشدائد والكرب ـ بينت ذلك في كتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه.

قـول الله تـعـالـــى :

﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ ﴾ في هذا إلزام الكفار بالإقرار والاعتراف بأنَّ الله تعالى هو خالقهم وحده لا غيره، وأنَّه سبحانه الذي خلقهم هو سيعيدهم بعد الموت كما بدأهم، قال سبحانه: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ فهو سبحانه هو الذي خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، وهم ـ أي: الكفار ـ يعلمون أنَّهم كانوا في العدم، ثم صاروا في الوجود، إذاً مَنْ الذي أوجدهم، فإنَّه لا يمكن أن يكونوا أوجدوا أنفسهم، لأنهم كانوا عدماً، ولا يمكن أن يكون آباؤهم أوجدوهم فإنَّ آباءهم مثلهم كانوا في العدم، فَمَنِ الذي خلقهم، وخلق آباءهم وهكذا جميع ما هنالك؟ فإنهم كلهم لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ظاهراً في الوجود الكوني، إذاً لابُدَّ وأَنَّ هناك خالقاً غير مخلوق، هو الذي خلقهم وأوجدهم، أَلاَ وهو الله رب العالمين، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ﴾ أي: أحكم الله تعالى وأتقن ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق، حتى صار لهم قوة وتماسك، وذلك كله بشدِّه تعالى أسرهم، وإمداده تعالى لهم بالقوى، وتماسك الأعضاء، وإذا أراد سبحانه قطع عنهم ذلك الشدّ والمدَّ، فَتَتَفَلَّت أعصابهم ومفاصلهم، وتذهب قواهم عنهم، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والأَسْر في أصل اللغة معناه: الشدّ والربط ، وقد يطلق على ما يُشدُّ به ويربط به ، كما في الآية الكريمة التي نحن في تفسيرها .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ .

والمعنى إذا شاء سبحانه بعثهم يوم القيامة بعد موتهم ، وبَدَّلهم فأعادهم خلقاً جديداً كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة يقيم الله تعالى الحجة على منكري الإعادة والبعث ، وأَنَّ الذي قدر على البداءة لهو قادر على الرجعة والإعادة ، قال الله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ الأمثال قد يطلق ويراد به جمع مِثل بكسر الميم كالشِّبْه والشبيه ، والنظير ، وقد يطلق ويراد به جمع مَثَل بفتحتين وهو: الصفة ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ الآية أي: صفتها[(١)] وقد يطلق الأمثال ويراد به جمع مَثَل وهو ما يُضرب به من الأمثال .

وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بالأمثال في هذه الآية الصفات ، وهذا التبديل يوم القيامة ، ويدل على ذلك قول الله تعالىٰ في سورة الواقعة يخاطب الكفرة ومنكري البعث ويقيم الحجة البالغة عليهم: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾

---

(١) وذهب بعض المفسرين إلى أَنَّ المراد بتبديل أمثالهم بأنْ يهلكهم الله تعالى ـ أي: الكفرة ـ ويأت بخلق جيد وهذا يكون في الدنيا .

ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: أوجدناكم وأظهرناكم للوجود بعد أَنْ لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أي: هَلاَّ تصدقون تصديقاً جازماً مِنْ قلوبكم يحملكم على أنَّه لا إلٓه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير، ويحملكم على امتثال أوامره التي جاءكم بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويحملكم على التصديق بأَنَّ الله قادر على إحياء الموتى وبعثهم مِنْ قبورهم، وجمعهم ليوم لا ريب فيه، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: تطرحونه في الأرحام من النطف ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: تخلقون ذلك الماء وهو المني، وتخلقون ما يوجد ويُخلَق مِنْ ذلك الماء وهو النطفة فتجعلون ذلك ذكراً أو أُنثى ـ أي: بل هو سبحانه وحده لا شريك له هو الذي يخلق ذلك الماء، وهو المني الذي يُطرح في الرحم، وهو يخلق من ذلك الماء ما يشاء مِن ذكر أو أُنثى.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: جعلنا لموت كلِّ واحد منكم وقتاً مُعيَّناً، كما تقتضيه المشيئة الإلٓهية، والحكمة الربانية جلَّ وعلا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: بل نحن قادرين على أن نحييكم بَعد موتكم، ونبعثكم مِن قبوركم، ونجمعكم ليوم الجمع، فنبدل أمثالكم أي: نظير صفاتكم التي كنتم عليها في الدنيا، وننشئكم فيما لا تعلمون من صفات تلك النشأة، فذواتهم في الدنيا هي

ذواتهم في الآخرة ، وأما صفاتهم في الآخرة فهي تتبدل عما كانوا عليه في الدنيا ، فالتبديل يجري على الأمثال ـ أي : الصفات ـ لا على الذوات ، فهم الذين كانوا في الدنيا هم الذين يكونون في الآخرة ، ولكن تتبدل صفاتهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وذلك أنَّ الله تعالى خلقهم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، فهلاَّ تتذكرون أَنَّ مَنْ قدر على النشأة الأولىٰ فهو على النشأة الأُخرى أقدر وأقوى من باب أولى ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ .

فذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الدليل على قدرته على البعث والحشر ، وهذا الدليل هو من أنفسهم ، فهو الدليل النفسي القائم بأنفسهم ، ولا يسعهم إنكاره ولا جحوده ، ثم ذكر الدليل الخارجي الآفاقي فقال سبحانه : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ـ أي : واجب الوجود ، القديم الذي لا أول له ، والباقي الذي لا آخر له ـ ﴿ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ .

فالله تعالى أشهد عباده قدرته على الإعادة والحشر في أنفسهم ، كما أنَّه سبحانه وتعالى أشهدهم قدرته على الإعادة في آياته

التكوينية الآفاقية المحيطة بهم: السماوية والأرضية، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

قول الله تعالى

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

إنَّ هذه السورة وما فيها مِن الآيات الكريمة هي: تذكرة ـ أي: تذكير وعظة، وتنبيه لكل إنسان عاقل، تعظه وتبصِّره وتنبهه، ليكون على بينة من أمره، فلا يكون من الذين تتلاعب بهم الأهواء والآراء الفاسدة.

﴿ فَمَن شَآءَ ﴾ أي: بعد أن ينتبه ويتبصَّر ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ الذي خلقه وربَّاه، وصوَّره وغذَّاه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة ﴿ سَبِيلًا ﴾ أي: طريقاً توصله إلى ربه لينال رضاه، وثوابه وإحسانه وعطاءه، وهذا السبيل هو الصراط المستقيم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهدي إليه كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ ـ أي: الصراط الموصل إلى الله تعالى ـ ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فالصراط الموصل إلى الله تعالى هو الذي دعا إليه

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ ـ أي: الطرق المعوجَّة والملتوية، متبعين للأهواء ـ ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ ـ أي: تميل بكم ـ ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ـ أي: صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ـ ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

روى الإمام أحمد، والنسائي، والبزار، وغيرهم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطاً بيده ثم قال: «هذه سبيل الله مستقيماً» ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطّ وعن شماله ثم قال: «وهذه السبل ليس منه سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: فتميل بكم وتخرجكم عن سبيله المستقيم جلَّ وعلا، وتأخذ بكم إلى المتاهات والمتالف والمهالك، كالماشي في الصحراء الدوية المتخبط في الظلمات المهلكة.

أما سبيل الله تعالى الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو إليه فإنَّ الذي يسلكه هو على بينة ونور وبصيرة، ونهايته إلى الله تعالى ورضوانه، وإكرامه وإحسانه، وجنته دار كرامته سبحانه:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ ـ أي: برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ ـ أي: عظَّموه ـ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟

﴿ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾.

روى الترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١).

ورواه البيهقي، وابن المنذر، والطبراني وغيرهم، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من سرَّه أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم بخاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

وقال داود الأودي نقلاً عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات: قال تعالى: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

ومراد ابن مسعود رضي الله عنه من قوله: من سرَّه أنْ ينظر إلى

---

(١) كذا في (التيسير) وقد ذكره في (الدر المنثور) وعزاه للترمذي قال: وحسنه ـ أي: حسنه الترمذي.

(٢) انظر تفسير (روح المعاني) و(الدر المنثور).

(٣) هذا أورده ابن كثير في تفسيره.

وصية محمد صلى الله عليه وآله وسلم فليقرأ هذه الآيات الثلاثة المتقدمة.

أراد رضي الله عنه أنَّه كان صلى الله عليه وآله وسلم يوصي العباد بما أمره الله تعالى أن يبلِّغهم من وصاياه سبحانه لعباده، فيوصيهم بما أوصاهم الله تعالى به.

والوصية: كلمة جامعة لكل خير يُراد إيصاله إلى المُوصى له، ودلالته على ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وتلك الآيات الثلاثة المشار إليها فيما تقدم هي قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ الآيات الثلاثة.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: هذه الآية أَمْرٌ من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأنْ يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرَّم الله تعالى، قال: وهكذا يجب على مَنْ بعده مِنَ العلماء أَنْ يُبلّغوا الناس، ويُبينوا لهم ما حرَّم الله تعالى عليهم مما أحلَّ لهم، قال الله تعالى: ﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ الآية اهـ.

وأراد بالآية قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ وهذه وإن كانت خبراً عَنْ مَنْ تقدم من أهل الكتاب؛ ولكن فيها تحذير وتخويف لهذه الأمة المحمدية أن يقعوا في مِثْل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ ـ أي: أتل عليكم تحريم الإشراك بالله تعالى ـ ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ ﴾ ـ أي: خشية

الفقر ـ ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ والمعنى أنَّه سبحانه هو متكفِّل برزق كل مخلوق يخلقه، فهو سبحانه يرزق الآباء، ويرزق الأولاد، والكلُّ رزقهم على الله تعالى، أوجب ذلك سبحانه على نفسه، فقال: ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ ـ أي: لضعفها أو مرضها ـ ﴿ ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾.

وأذكر حكاية فيها عبرة:

كان بعض الصالحين إذا جلس للطعام تأتيه هرَّة، فكان يُلقي إليها شيئاً من الطعام، فما تأكله، بل تذهب به، وهكذا استمرَّ أمرها، فمشى مرةً وراءها لينظر إلى أين تذهب بالطعام، فتتبعها حتى دخلت مكاناً خرباً، فلحقها، فإذا في جانب من جوانب الخربة هرَّة عمياء جالسة، فجاءت تلك الهرة التي يُلقي إليها الطعام فوضعته أمام تلك الهرة العمياء.

فكانت هذه القصة التي شهدها سبباً في بلوغه درجة الولاية، وتجلَّىٰ له قول الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ـ أي: السميع لأقوال عباده، وسؤالهم حاجاتهم ودعائهم، والعليم بأحوالهم، وحركاتهم وسكناتهم، فليسألوه حاجاتهم فإنه هو السميع العليم[(١)].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في (تفسيره) عند هذه الآية الكريمة: وقد ذكروا أنَّ الغراب إذا فقس عن فِراخه البَيْض خرجوا ـ أي: من البَيْض ـ وهم بيض اللون، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً ـ قليلة ـ حتى يَسْوَدَّ =

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وفي هذا ينهى الله تعالى عن الفواحش ـ أي: المعاصي الظاهرة في الأعمال والأقوال، والباطنة وهي: ما عقد عليه القلب من المخالفات لأمر الله تعالى، وهذا يشمل جميع آثام القلوب، ومنها كتمان الشهادة الموقوف عليها تحقيق الحق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ ومنها حقد القلب، والحسد، والضغينة، والبغضاء، والاحتقار، وحبّ الأذىٰ والشر لعباد الله تعالى، والنيات السيئة، وجميع ما هنالك من ضمائر القلوب التي نهى الله تعالى عنها.

فعليك أيها المسلم بصلاح الظاهر وصلاح الباطن، قلبك وقالبك، في السر والعلانية.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ـ أي: بما فيه صلاحه وتنميته ـ ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ ﴾ ـ أي: قولاً يتضمن الأحكام أو الشهادات ـ ﴿ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ ـ أي:

= الريش، فيظل الفرخ في هذه المدة فاتحاً فاه يتفقد أبويه، فيقيِّض الله تعالى طيراً صغاراً ـ أي: نوعاً من البعوض والبقّ ـ فيغشاه، ويدخل في فمه، فيتقوت به تلك الأيام حتى يسودَّ ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رأوه قد اسودَّ ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر:

يا رازق النُّعاب في عشه ... وجابر العظم الكسير المهيض

والمهيض هو: العظم المكسور كسراً فوق كسر.

ولو كان الحق على قرابتكم ـ ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ وهذا عامٌّ في جميع ما عهد الله إلى عباده: من الأوامر التي أمرهم بها، والانتهاء عن المناهي التي نهاهم عنها ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أعاد ذكر التوجيه لبيان أَنَّ ما تضمَّنته الآية التي قبل هذه الآية هو وصية أولى وأَنَّ ما تضمنته هذه الآية فهو وصية ثانية، وما يأتي بعدها فهو وصية ثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

فهذا الصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى باتباعه هو الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فمن أراد السير على الصراط المستقيم فليتبع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ في الأعمال والأقوال، والأخلاق والأحوال.

وهو الصراط المستقيم الذي دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد للسير والسلوك عليه قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ أي: معرضون وكارهون.

وقال تعالى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو الصراط المستقيم الذي هدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العباد إليه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾.

فالصراط المستقيم الذي دعا رسول الله العباد وهداهم إليه هو:

صراط الله الموصل إلى الله تعالى ، وإلى رضوانه ، وجنته ورحمته ودار كرامته .

قال الإمام الجنيد رضي الله عنه : الطُّرُق إلى الله تعالى كلُّها مسدودة إلاَّ مَن اقتفىٰ ـ أي : اتبع ـ أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . اهـ .

أي : مشى وراءه صلى الله عليه وآله وسلم ، متبعاً لما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء بشريعة غرَّاء بيضاء كالشمس ، ضامنة لجميع المصالح البشرية : مَن كانوا ، وحيثما كانوا ، وفي أيِّ زمن كانوا ، على مختلف الأجيال ، وامتداد العصور .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة ذَرَفتْ منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، قلنا : يا رسول الله إنَّها لموعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «قد تركتكم على البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها ـ أي : لا يميل عنها ـ إلاَّ هالك ، ومَنْ يَعِش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بما عرفتم مِنْ سنتي ، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين» .

ورواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) بإسنادٍ حسن ، ولفظه : «لقد تركتكم على مثل البيضاء ـ أي : الشمس ـ ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك» .

وقد شرحت هذا الحديث في مواضع من كتبي ، وذكرته هنا لمناسبة البحث.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطب احمرَّتْ عيناه ، وعلا صوته ، واشتدَّ غضبه ، كَأَنَّه مُنذر جيش يقول: صبَّحكم ومسَّاكم ، ويقول: «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ـ ويقرن بين إصبعيه السبَّابة والوسطى ـ ويقول: «أمَّا بعدُ: فإنَّ خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هديُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشرَّ الأمور مُحدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، أنا أَوْلى بكل مؤمن مِنْ نفسه ، مَنْ ترك مالاً فلأهله ، ومَنْ ترك دَيناً أو ضياعاً ـ أي: عيالاً ـ فإليَّ وعليَّ».

قال في (الترغيب) : ورواه مسلم ، وابن ماجه وغيرهما.

قول الله تعالى

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

والمعنى: وما تشاؤون شيئاً إلاَّ أن يشاء الله تعالى مشيئتكم له ، فإذا شاء شئتم ، فمشيئة العبد واختياره وجميع أفعال العباد الصادرة عنهم هي كلها بمشيئة الله تعالى ، وبخلقه لها ، وإرادته سبحانه وتعالى.

فإن قيل: يلزم من كون مشيئة العبد ، واختياره وإرادته وأعماله ، مخلوقة بخلق الله تعالى لها ، وبإرادته ومشيئته لها ، يلزم من ذلك أَنَّ صفة مشيئة العبد وإرادته واختياره ليس لها حقيقة

وجودية ، وأنَّه لا أثر لها في أعمال الإنسان وأقواله وجميع أفعاله؟

فالجواب عن ذلك : أَنَّ هذا اللزوم هو باطل من وجوه متعددة :

أولاً : إذا كان يلزم من خلق الله تعالى لاختيار العبد وإرادته ومشيئته ـ وأَنَّ ذلك كله بإرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه ـ إذا كان يلزم مِنْ ذلك أَنْ لا اختيار للعبد ولا مشيئة له ، ولا إرادة له ، ولا أثر لذلك ، فيجب أن يجري هذا اللزوم ويطَّرِد في بقية صفات العبد التي آتاه الله تعالى إياها ، بل يجري هذا اللزوم في أصل وجود العبد الذي أكرمه الله تعالى به .

فإنَّ الله تعالى هو الذي خلق العبد ، وأوجده بإرادته سبحانه وبمشيئته ، ولا يلزم من ذلك أَنْ لا وجود للعبد ، ولا أثر لوجوده في العالم ، مع أنَّ العبد هو موجود حقاً ، وُجُوداً إمكانياً بإيجاد الله تعالى له ، وبمشيئته سبحانه وإرادته ، وإلاَّ فما الفرق بين العبد بعد أَنْ أوجده الله تعالى ، وبينه قَبْل أَنْ يُوجده الله تعالى حين كان في العدم غير موجود؟

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ الآية ـ أي : فبعد أَنْ خلقه الله تعالى صار إنساناً مذكوراً موجوداً وجوداً حقيقياً ، لا وهمياً ولا خيالياً .

وكما أَنَّ من صفات الإنسان أنه حيّ ، وحياته هي بخلق الله تعالى ، وبإرادته ومشيئته :

قال الله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الآية .

فلا يقال : إنَّه لا حياة للإنسان لأنَّها بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته ، فإننا نقول : إذاً فما الفرق بين الإنسان الحي والميت؟

كما أَنَّ مِنْ صفات الإنسان التي خلقها الله تعالى فيه أَنَّه سميع بصير كما قال سبحانه : ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ .

فسمع الإنسان وبصره مجعولان موجودان ؛ مخلوقان بخلق الله تعالى ، وبإرادته ومشيئته سبحانه ، فالإنسان سميع بصير حقاً ، فهو يَسْمع ويُبصر بما خلق الله تعالى فيه من السمع والبصر ولهما أثرهما ، وإلاَّ فما الفرق بين الإنسان السميع البصير وبين الأصم الأعمى؟

وهكذا من صفات الإنسان الاختيار ، والإرادة والمشيئة ، فهو مختار ومريد ، وهو ذو مشيئة ولها آثارها الظاهرة في الوجود ، حقيقة واقعية ، ليست أوهاماً ولا خيالات .

قال الله تعالى : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فللعبد إرادة ولها آثارها .

كما أَنَّ له اختياراً ، فهو يتصرف باختياره ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ .

كما أَنَّ الإنسان له مشيئة ، فهو يشاء ، قال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ الآية ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فقد أثبت الله تعالى للعبد مشيئة ولها آثارها في أعماله وتصرفاته ، وكل ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته سبحانه ، كما قال سبحانه : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية .

وقال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية.

فالخلق الذي هو إيجاد الشيء بَعْد أن لم يكن هذا خاص به سبحانه، فهو الخالق وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فذوات العباد وصفاتهم، وأعمالهم وأقوالهم، وأحوالهم التي يتقلبون فيها، كلُّ ذلك مخلوق بخلق الله تعالى، وبإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى.

ثانياً: إنَّ الله تعالى خلق للإنسان السمع والبصر، والإرادة والاختيار والمشيئة، وبقية الصفات والمواهب، من القوى العقلية، والمدركة، والفكرية، والعملية إلى ما هنالك... وكلها بخلقه سبحانه وتعالى، ثم كلَّف هذا الإنسان بالتكاليف الشرعية على نسبة ما خلق فيه وأعطاه من تلك الصفات والقوى، كما بيَّن سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نريد اختباره وتكليفه ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أي: وأعطيناه ما هنالك مِنَ الصفات والعقل والقوىٰ التي تجعله أهلاً للقيام بالتكاليف الشرعية التي فيها صلاحه، ونجاحه، وسعادته في الدنيا والآخرة.

وإنَّما خص الله تعالى ذكر السمع والبصر في قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ لأنهما الطريقان الموصلان الأمور للعقل ليعقلها، ويتدبر فيها، ولذلك جاءت التكاليف الشرعية بما فيها من أوامر ومناهي؛ جاءت على وجه لا حرج فيه، ولا تكليف فوق الطاقة، لأنَّه سبحانه أعطى الإنسان من الصفات والقوى ما يمكِّنه

من القيام بالتكاليف الشرعية دون حرج ولا مشقة:

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية، أي: إلا ما تسعه قدرتها، بحيث يتيسر عليها.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية.

وقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ الآية.

فالتكليف لم يَرِد إلا بعمل يقدر عليه المكلَّف والمراد بـ﴿وُسْعَهَا﴾ ما دون مدى طاقتها، بحيث يتيسر القيام بذلك عليها، فإنه سبحانه قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ الآية.

وقال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الآية.

وفي هذه التكاليف الشرعية التي كلف الله تعالى بها عباده، وفي ترتيب الجزاء عليها: ثواباً إذا أحسن، وعقاباً إذا أساء، كما قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

في هذا كله دليل قاطع ساطع، على أنَّ الإنسان له اختيار وإرادة ومشيئة، لها آثارها في أعماله وأقواله ـ وإن كان ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ـ أي: عملوا السيئات ـ ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

فهناك مَنْ عمل السيئات ، وهناك مَنْ عمل الصالحات ، وكلهم فعلوا ما فعلوا باختيارهم وإرادتهم ، وسيلقى المسيء عقابه ، وسيلقى المحسن ثوابه .

ثالثاً: إنَّ الله تعالى أخبر في كتابه العزيز أَنَّ للعباد أعمالاً عملوها ، وأقوالاً قالوها ورتَّب على ذلك جزاءً : إمّا ثواباً أو عقاباً كما تقدم .

ففي إسناده سبحانه تلك الأعمال والأقوال إليهم ، وفي نسبتها لهم ، وإضافتها إليهم؛ في ذلك كله دليل على أنَّ أعمالهم وأقوالهم لها آثارها وأحكامها ، واعتبارها في الجزاء ، وأنها ـ أي : أعمالهم وأقوالهم ـ أمور واقعية ، صدرت عنهم حقيقة ، ليس من باب الوهم ولا الخيال؛ وإنْ كانت تلك الأعمال والأقوال بخلق الله تعالى ، وإرادته ومشيئته سبحانه وتعالى .

فقد نسبها الله تعالى إلى العباد ، وأسندها إليهم ، وهذا الإسناد إليهم له اعتباره ، لأنها صادرة عنهم حقيقة واقعية ، فإنَّه سبحانه يخبر عن الحقيقة الواقعة .

قال الله تعالى في المسيئين عملهم : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ أي : وإنا لصادقون في أنهم بَغوا وطغوا ، حقيقة واقعية ، فاستحقوا العقاب ، فنسب سبحانه البغي إليهم نسبة حقّة ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ جل وعلا ، والصدق هو : الإخبار عن الواقع حقيقة .

وقال الله تعالى في قصة سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾.

فإسناده سبحانه الكفر للذين كفروا، وترتيب العقاب على كفرهم، دليل قاطع على أنهم كفروا حقاً لا وهماً، وأنَّ ذلك أمر واقعي صدر عن اختيارهم، ولَوْ لَمْ يكن لهم في ذلك اختيار ما عاقبهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

رابعاً: إنَّ الله تعالى أسند الظلم إلى العباد الذين ظلموا أنفسهم، ونفىٰ سبحانه الظلم عن نفسه، وتنزَّه عنه جلَّ وعلا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

فلولا أنَّ العباد لهم اختيار لسوء الأعمال، وارتكاب المعاصي، وعذابهم مرتب على ذلك؛ لكان ظلماً، وقد نفى سبحانه الظلم عن نفسه وتنزه عنه، وحرَّمه على نفسه، كما ورد في الحديث القدسي، الذي رواه مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا» إلى تمام الحديث.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي: فيعملون بالمعاصي، ويوقعون أنفسهم في العذاب، فهم الظالمون لأنفسهم حقاً.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ فهو سبحانه لا يظلم، ولا يريد الظلم للعباد سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

نعم صدق الله العظيم، فهو سبحانه لا يظلم، ولا يريد الظلم للعباد، وحرم على نفسه الظلم سبحانه، وفي هذه الآيات وغيرها دليل قاطع، وبرهان ساطع على أنهم عُوقبوا بعملهم واختيارهم الذي خلقه الله تعالى فيهم.

وقال الله تعالى في الكفار: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ أي: طريقاً بين الإيمان والكفر يسلكونه مع أنه لا واسطة بين الإيمان والكفر قطعاً، فإنَّ الحق هو الحق لا خلاف فيه، وماذا بعد الحق إلا الضلال ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ أي: هم الذين كَفروا كُفراً قطعاً، واقعاً منهم لا شك فيه ولا ريب ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

فأثبت لهم أنَّهم كفروا قطعاً بإرادتهم واختيارهم ، ورتَّب على ذلك عذابهم المهين .

خامساً: إنَّ الله تعالى قد أسند للمؤمنين أعمالاً صالحة عملوها ، وأقوالاً طيبة قالوها ، وأثبت لهم اختيارهم لها وإرادتهم ، ورتَّب على ذلك جزاءهم وثوابهم وأجورهم :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

فهم مؤمنون إيماناً حقاً وقطعاً ، باختيارهم وإرادتهم .

وقد ذكر الله تعالى عن عباده المؤمنين بعد أن يدخلهم الجنة ، ويعطيهم ما يعطيهم من ألوان النعيم ، وأنواع الفضل والكرم الإلّهي ، يقول لهم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ الآية كما تقدم .

والمعنى : إنكم عملتم وأحسنتم ، وسعيتم فيما يقربكم إلى ربكم ويرضيه ، فامتثلتم أوامره ، واجتنبتم ما نهاكم عنه ، فهذا جزاؤكم ، وسعيكم مشكور مرضيّ ومقبول ـ اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً .

فالله تعالى يشكرهم على أعمالهم الصالحة ، وسعيهم في مرضاته سبحانه ، فأثبت لهم أعمالاً وسعياً بذلوه ، صدر عنهم باختيارهم ، وإرادتهم ، هم اختاروا ذلك وأرادوه وسعوا إليه .

سادساً: إنَّ الله تعالى بعد ما يذكر عقوبات الأمم الكافرة؛ في

الدنيا أو في الآخرة ، يذكر بعد ذلك أنه لَمْ يظلمهم ، ولكنهم هم أنفسهم يظلمون ، وقد قال سبحانه : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ [(١)] وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ ـ أي : ما كانوا معجزين لله تعالىٰ ـ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

فبين سبحانه وتعالى أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، وفعلوا ما فعلوه باختيارهم وإرادتهم ، مستكبرين ومعرضين عما جاءتهم رسلهم من البينات القطعية ، والأدلة الدامغة ، وما كان الله ليظلمهم ، ولا يريد أَنْ يظلمهم كما قال سبحانه : ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي : آيسون من كل خير ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .

فقوله : ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ هو قول حق وحقيقة ، وقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هو قول واقع حقيقة ، يخبر به سبحانه عن المجرمين ، فهم الظالمون لأنفسهم باختيارهم وإرادتهم ، وفعلهم

---

(١) قال العلامة البيضاوي : متمكنين من النظر والاستبصار ، ولكنهم لم يفعلوا إلخ أي : لم يفعلوا ذلك كِبْراً وعتواً وعناداً .

لِمَا نهاهم الله تعالى عنه ، فهم الذين أساؤوا إلى أنفسهم ، وسلكوا مسالك الهلاك والعذاب وعقاب الله تعالى .

سابعاً : إنَّ اختيار العبد هو ثابت شرعاً وعقلاً وذوقاً ووجداناً :

أمَّا ثبوت الاختيار للعبد شرعاً : فإنَّ الشارع أثبت للإنسان حالة اختيار ؛ ورتَّب عليها المؤاخذة والمعاقبة ، كما أثبت للإنسان حالة اضطرار ؛ ورفع عنه المؤاخذة والمعاقبة حال كونه فيها :

قال الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾ ، ثم قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ أي : مجاعة شديدة أصابته ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ أي : غير مائل لإثم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فبين الله تعالى أنَّه حرَّم تلك المحرَّمات في غير حالة الاضطرار إليها ، أما إذا اضطرَّ إليها ، بأنِ اشتد الجوع على الإنسان ، وخاف على نفسه الموت مِنْ شدة الجوع ، وليس هناك شيء يتناوله سوى تلك المحرمات؛ فلا إثم عليه في تناولها ـ بقدر الحاجة ، لأنه مضطَّر إليها ، فإذا تناول شيئاً من تلك المحرَّمات حالة الاضطرار إليها فإنَّه ليس مختاراً في ذلك ، فلا إثم عليه ـ إذاً هناك حالة اختيار ، وهناك حالة اضطرار ، ولكل حالة حكمها .

وقال الله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية الكريمة ـ كما قال ابن جرير والبيهقي ـ في

عمَّار بن ياسر رضي الله عنهما حين أخذه المشركون فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا باللسان ، ولكن قلبه مطمئنٌّ بالإيمان .

وأما ثبوت الاختيار عقلاً: فإنّ كل عاقل يُفرِّق بين الآثار الناشئة من حركة البشر ، والآثار الناشئة عن حركة الشجر ، فإنَّ وخزة تناله من قِبَل البشر تغضبه ، وتدفعه للانتقام ممن وخزه ، لأنَّه يعلم يقيناً أنها صدرت عن إنسان له اختيار وإرادة لذلك ، أما إذا مرَّ تحت شجرة يحرك الهواء أغصانها ، فوخزته ، أو جذبت طرف ثوبه، أو خدشته: فإنها لا تغضبه ، ولا يندفع للانتقام من الشجرة، لأنه يعلم يقيناً أَنَّ الشجرة لا اختيار لها في ذلك الجذب والخدش.

فلو قلنا: إنَّ الإنسان لا اختيار له في أعماله الاختيارية ، للزم أَنْ نعامل البشر في ذلك كالشجر!!!.

أما ثبوت الاختيار ذوقاً وجدانياً : فإنَّ الإنسان يَعلم مِنْ نفسه أَنَّ له أعمالاً تَصدر عنه باختياره وإرادته ، كذهابه ومجيئه ، وقيامه وقعوده ، ويعلم أيضاً أَنَّ له أعمالاً تصدر عنه لا باختياره ، بل هو يكون مضطَّراً إليها ، ولا يستطيع دفعها ، وذلك كالعطاس ، والتثاؤب ، والرعشة ونحو ذلك ، وليس أحد من الناس يتساوى عنده صدور أعمال القعود والقيام؛ وتناول الطعام والشراب مع العطاس والتثاؤب ، بل يفرق بينهما بذوق نفسه ووجدانه .

فاختيار الإنسان وإرادته ، ومشيئته واختياره ثابت شرعاً وعقلاً وذوقاً ، وكل ذلك بخلق الله تعالى وإرادته ومشيئته ، فهو سبحانه خلق للإنسان اختياراً وإرادة ومشيئة ، فمن صفات الإنسان أنه مختار ومريد وذو مشيئة حقاً.

قول الله تعالى

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾

قول الله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: جنته سبحانه وتعالى.

وينبغي أن يُعلم أَنَّ الرحمة قد تذكر في القرآن الكريم ويراد بها صفة الباري جل وعلا، ومعناها: الإحسان والإنعام والإفضال، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقول الله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ وهذه هي الرحمة العامة.

وهناك الرحمة الخاصة قال الله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وقد بينت الفرق بينهما في أول تفسير سورة الفاتحة بياناً مفصلاً.

وقال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

وقد يراد برحمة الله تعالى آثارها وما ينشأ عنها من المواهب الإلٓهية، وصنوف الكرم الإلٓهي وإحسانه.

قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وقال تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ .

وقد يأتي ذكر رحمة الله تعالى في القرآن ويراد بها جنته لأنها مظهر عظيم من مظاهر رحمته ، وهي المكان الذي مَنْ دخله نال رحمة الله وإكرامه ، وإنعامه وإحسانه ، على وجه لا يَعلم حدَّه إلا الله تعالىٰ .

فَمن جملة الآيات التي تذكر فيها رحمة الله تعالى ويراد بها جنته سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاه نبيك وحبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ أي : في جنة الله تعالى هم فيها خالدون ، لا زوال ولا فناء ، بل نعيم وبقاء مؤبَّد .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ أي : يقال للكافرين يوم القيامة أكفرتم بعد إيمانكم ، وأنتم في عالم الذرِّ الذي هو قبل هذا العالم ، حين استخرج الله تعالى ذرية آدم عليه السلام من الأصلاب ، وجمعهم في يوم عرفة ، وتجلَّى سبحانه وقال لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أي : أنت ربنا خالقنا ومالكنا وإلهنا ، وأشهدهم على أنفسهم ، فلما جاؤوا هذا العالم ، فأرسل الله تعالى إليهم الرسل بالبينات الدالة على وجوده سبحانه ووحدانيته ، وذكَّروهم ، وأنذروهم ، وبشروهم ، فأعرضوا عن

ذلك ، وكفروا بالله ، وبما جاءت الرسل صلوات الله تعالى عليهم ، فحقت كلمة العذاب على الكافرين .

وهذا كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ أي : أنت ربنا .

أي : إذ أخذ الله الميثاق من بني آدم ، وأخرجهم من الظهور ، وقال لهم : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ .

وهذا هو العهد الأول ، والميثاق الأول الذي أخذه الله تعالى على العباد بعد أن أخرجهم من ظهور آبائهم على هيئة الذرَّة ، وألبسهم أرواحهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، فكلهم آمنوا به ، وأقرُّوا له سبحانه بالربوبية له وحده ، فلما جاؤوا إلى هذا العالم فمنهم من بقي على الإيمان الأول ، ومنهم من كَفر بعد إيمانه هناك .

روى الإمام أحمد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرها بين يديه ، ثم كلَّمهم قُبُلاً ـ أي : دون حجاب ـ قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾» .

وروى نحوه النسائي ، والحاكم وصححه كما في (تفسير) ابن كثير.

ولذلك وُلدوا كلهم على الفطرة والتوحيد ، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما مِنْ مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسَانه كما تُنتجُ البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسُّون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها» الحديث.

وروى مسلم ، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ ربي أمرني أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا:

كلُّ مالٍ نحلتهُ ـ أي: أعطيته ـ عبداً حلال[1] ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء[2] كلَّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم ـ أي: اجتذبتهم وحَوَّلَتْهم ـ عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتْـهُـم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً.

وإنَّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ـ أي: إلا الذين تمسكوا بالكتاب النازل على رسلهم ـ.

وقال ـ أي: قال الله تعالى ـ : إنما بَعَثْتُك لأبتليك وأبتلي بك ،

---

(١) أي: مال اكتسبه من طريق حلال فهو حلال له ، وفي هذا رد على المشركين؛ كانوا يحرمون ما أحل الله تعالى لهم.

(٢) أي: على الدين الحنيف ، والتوحيد الخالص من الشرك.

وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء ـ أي: هو محفوظ في الصدور ـ تقرأه نائماً ويقظاناً.

وإنَّ الله تعالى أمرني أُحَرِّق قريشاً ـ أي: أقاتل المشركين منهم ـ.

فقلت: ربِّ إذا يثلغوا ـ أي: يشدخوا ـ رأسي فيدَعوه خُبْزَة.

فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغزك ـ أي: نُمدُّك ـ وأَنْفق فننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتِل بمنْ أطاعك من عصاك».

قال: «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقسط متصدِّق مُوَفَّق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذي قربىٰ ومسلم، وعفيف متعفِّف ذو عيال» إلى تمام الحديث.

فقوله سبحانه في الحديث القدسي المتقدم: «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم» أي: على التوحيد المفطورين عليه في عالم الذر قبل هذا العالم، وقد فصلت الكلام على عالم الذر في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم).

وروى ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ ﴾ الآية، قال: (صاروا فرقتين يوم القيامة، يقال لمن اسودَّ وجهه: ﴿ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾ فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم ـ أي: وقد استخرجهم الله تعالى في عالم الذرِّ وأخذ عليهم العهد كما تقدم ـ حيث كانوا أمة واحدة، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم، وأخلصوا له الدين، فبيَّض الله تعالى

وجوههم ، وأدخلهم في رضوانه ورحمته) ـ أي: جنته. اهـ كما في (الدر المنثور).

فرحمة الله تعالى قد يراد بها الجنة ، كما في الآية المتقدمة ، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: جنته.

وذلك لأن الجنة لها أسماء متعددة ، باعتبار صفاتها ومُسمَّاها ، واحد باعتبار ذاتها فهي تسمىٰ الجنة ، وهو الاسم العامُّ الشامل لتلك الدار ، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم والسرور ، وقرة الأعين ، وما تشتهيه الأنفس إلى ما هنالك.

وأصل اشتقاق هذه الكلمة ـ أي: الجنة ـ مِنَ الستر والتغطية ، ومنه الجنين فإنّه مستتر ببطن أمه ورحمها والوشيمة ، فهي الجنة تستر داخلها بأشجارها ، وتغطيه بظلالها.

اللهم أدخلنا الجنة بسلام آمنين ، بجاه إمام الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين.

فهي الجنة التي أعدَّها الله تعالى للمتقين ، وهي: تسمَّى رحمة الله تعالى كما تقدم.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تحاجَّتِ الجنة والنار.

فقالتِ النار: أُوْثِـرْتُ ـ أي: خُصِّصتُ ـ بالمتكبرين والمتجبِّرين.

وقالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم.

فقال الله تعالى للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بك مَنْ أشاء من عبادي.

وقال للنار: أنتِ عذابي أعذب بكِ مَنْ أشاء من عبادي ـ ولكل واحدة منكما ملؤها.

فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع الله تبارك وتعالى فيها رجله، فتقول: قَطْ قَطْ، فهنالك تمتلىء ويزوىٰ بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحداً.

وأما الجنة فإن الله تعالى يُنشىء لها خلقاً» أي: فيسكنهم فضل الجنة ـ كما جاء في رواية ـ كذا في (تيسير الوصول).

وأورد في (جامع الأصول) رواية لمسلم:

«قالت الجنة: فمالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم وغِرَّتهُمْ».

كما أورد حديث مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«احتجَّتِ الجنة والنار.

فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون.

وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم.

فقضى بينهما إنكِ الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنكِ النار عذابي أعذب بك من أشاء ـ ولِكِلَيْكُمَا عليَّ مِلْؤُهَا».

وروى الشيخان، والترمذي، عن أنس رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تزال جهنم يُلقىٰ فيها

وتقول: هل من مزيد؟ حتى يَضعَ ربُّ العرش ـ وفي رواية «ربُّ العزَّة» ـ فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ ـ أي: حسبي وكِفَايتي ـ بعزتك وكرمك.

ولا يزال في الجنة فَضْلٌ حتى يُنْشيء الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة» كذا في (جامع الأصول) قال: وقَدَمُ ربِّ العزة كناية عن أهل النار الذين قدَّمهم الله تعالى لها من شِرار خلقه. اهـ.

والجنة تسمى أيضاً دار السلام:

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إمَّا أن يكون المراد بالسلام السلامة والأمان، فهو مصدر، وسميت الجنة بدار السلام لسلامة أهلها الذين يدخلونها من: الآلام والأسقام، والآفات والعاهات، والمصائب والشدائد والكربات، وسائر المخاوف.

جاء في الحديث، عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ ينادي منادٍ: إنَّ لكم أَنْ تحيَوا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أَنْ تَصِحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإنَّ لكم أَنْ تَشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإنّ لكم أنْ تَنْعموا فلا تبأسوا أبداً ـ وفي رواية «فلا تبتئسوا» ـ فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾» كذا أورده في (جامع الأصول) وعزاه لمسلم، والترمذي.

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ يدخل الجنة ينعَم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» كذا في (جامع الأصول).

كما أَنَّ الجنة تُسمى دار السلام لتسليم الله عز وجل على أهلها يحيِّيهم:

قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

روى ابن ماجه وغيره، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع عليهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قوله عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم؛ ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره» كذا في (ترغيب) الحافظ المنذري وغيره.

كما أَنَّ أهل الجنة تتوارد عليهم تحيَّات الملائكة لهم بالسلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ليسلِّموا عليهم، مهنئين لهم بما نالوه من عطاء الله تعالى لهم من الفضل والكرم، وألوان النعيم والنِّعَم، ورضوان من الله أكبر.

كما أَنَّ أهل الجنة يكثرون السلام على بعضهم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: لا يسمعون في الجنة كلاماً لا غياً ـ أي: عبثاً خالياً عن المعنى، أو

مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف ـ كما قال تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ أي: كلمة لاغية، بل الكلام هناك كلُّهُ طيِّب، مشتمل على معاني كريمة، كما أنهم لا يسمعون فيها لغواً، ولا يسمعون فيها تأثيماً ـ أي: كلاماً فيه قبح وإثم.

فأهل الجنة طيبون كلهم، كما قال: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ وكلامهم طيب، ولقاؤهم طيب، وطعامهم طيب، وشرابهم طيب، ومسكنهم طيب، كما قال سبحانه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ الآية.

اللهم إنَّا نسألك إيماناً لا يرتدّ، ونعيماً لا يبيد، وقرَّة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جنة الخلد، وبجاهه صلى الله عليه وآله وسلم عندك يا رب العالمين ـ آمين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يُحتمل أن يكون المراد بالسلام اسم الله السلام، كما ذهب إليه كثير من السلف، فإن السلام اسم من أسماء الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ الآية الكريمة، فالله يدعو إلى دار السلام ـ أي: دار الله تعالى وهذا من باب الإضافة للتشريف والتكريم، نظيرها في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ كما في سورة الحج.

فالكعبة المعظمة هي بيت الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ الآية.

فالكعبة المعظمة هي : بيت الله تعالى ـ أي : بيت العبادة لله تعالى ، والتوجُّه إليه في الصلوات والدعاء ، والحج إليه ، والطواف حوله ، وما هنالك .

كما أَنَّ المساجد هي بيوت الله تعالى ـ أي : بيوت عبادة الله تعالى ، والصلوات لله تعالى فيها ، وما هنالك .

قال الله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ أي : تعظَّم وترفع عن مستوى غيرها من بيوتات العباد : بتعظيمها ، والتزام الآداب فيها وعدم اللغو ورفع الصوت فيها ، وبذل الجهد في نظافتها .

وقد ذكر العلماء الآداب المطلوبة في المساجد والتزامها ، وذلك لأن الله تعالى هو الذي شرع ذلك ، وأمر به ، قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ ﴾ ـ أي : شرع الله تعالى وأمر ـ ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ ﴾ ـ أي : يصلي له فيها في البكرات والعشيّات ـ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ يعني : من شدة الأهوال والفزع ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

فالواجب على المؤمن إذا دخل بيت الله تعالى أن يراقب عظمة ربّ البيت ، ويلتزم الأدب ، وحفظ اللسان ، وحفظ القلب ، ويدخل بسكينة ووقار ، ويخرج وعليه السكينة والوقار ، فلا ضوضاء ولا غوغاء بل الأدب ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ .

فالمساجد بيوت الله تعالى ـ أي : بيوت عبادته ، والصلاة له ،

وتسبيحه ، وذكره سبحانه وتعالى ـ والجنة دار الله تعالى ـ أي: هي دار ضيافته وكرامته لعباده الذين يدخلونها.

روى البيهقي ، عن جابر رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أُعطِيَتْ أمتي في شهر رمضان خمساً ـ أي: إكراماً له صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يُعطهنّ نبي قبلي:

أمَّا واحدة: فإنَّه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله تعالى إليه لم يعذبه أبداً.

وأمّا الثانية: فإن خلوف أفواههم ـ أي: رائحة أفواههم ـ حين يُمسون أطيب عند الله تعالى من ريح المسك.

وأما الثالثة: فإنَّ الملائكة تستغفر لهم في كل يوم وليلة.

وأما الرابعة: فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها: استعدِّي وتزيَّني لعبادي ، أوشك ـ أي: قرُبَ ـ أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى داري وكرامتي.

وأما الخامسة: فإنه إذا كان آخر ليلة ـ أي: من رمضان ـ غفر الله لهم جميعاً».

فقال رجل من القوم: أهي ليلة القدر؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا ـ ألم تر إلى العُمَّال يعملون ، فإذا فرغوا من أعمالهم وُفُّوا أجورهم» كذا في (الترغيب).

فالجنة دار الله تعالى ـ أي: دار فضله وكرامته لعباده المؤمنين ـ جعلنا الله تعالى منهم بفضله وبرحمته.

وروى الإمام الدارمي في (سننه) عن عطية أنه سمع ربيعة

الجرشي يقول: أتي النبيُّ صلى الله عليه وآلهِ وسلم فقيل: «لتنم عينك، ولتسمع أذنك، وليعقل قلبك».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فنامت عيني، وسمعتْ أذناي، وعقل قلبي.

فقيلَ لي:

سيِّد بنىٰ داراً، فصنع مأدُبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضي عنه السيد.

ومَنْ لَم يجب الداعي: لم يدخل الدار، ولم يَطعم من المأدبة، وسخط عليه السيد».

قال: «فالله السيد، ومحمد الداعي، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة».

وروى الإمام الترمذي، عن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مثلاً.

فقال: اسمعْ سمعتْ أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلكَ ومثل أمتك: كمثل مَلِك اتخذ داراً، ثم بنىٰ فيها بيتاً، ثم جعل مائدةً، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه: فمنهم مَن أجاب الرسول، ومنه مَن تركه ـ أي: لم يجبه ـ.

فالله هو المَلِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد رسول الله.

فمن أجابك: دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»[١].

ورواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من (صحيحه) بلفظ:

عن جابر رضي الله عنه قال: (جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إنَّ العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: إنَّ لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً.

فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إنَّ العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: مَثَله كمثل رجل بنى داراً، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً، فمن أجاب الداعي: دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي: لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا: أوِّلوها له يفقهها.

فقال بعضهم: إنَّه نائم، وقال بعضهم: إنَّ العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد عصى الله، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فرَّق بين الناس).

---

(١) ذكره الترمذي في الأمثال.

فرَّق بتشديد الراء ـ أي: فارق بين المطيع والعاصي ، ويُروىٰ فرْقٌ: بسكون الراء على المصدر وبتنوين القاف وُصِف به للمبالغة. كذا في شرح العلامة العيني على صحيح البخاري.

ومعنى ذلك: أَنَّ الفارق المُميِّزَ للمطيع عن العاصي هو: الطاعة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى طاعته صلى الله عليه وآله وسلم: اتباعه فيما جاء به اتباعاً حقاً، مع التسليم الكُلِّي، والانقياد القلبي، دون انتقاد ولا اعتراض: لا باللسان ولا بالجنان ـ أي: القلب.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا﴾ ـ أي: وجداناً قلبياً ـ ﴿فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ـ أي: تسليماً مطلقاً: قلباً ولساناً، عملاً وقولاً وحالاً.

قال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه: لو أنَّ قوماً عبدوا الله تعالى، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وصاموا رمضان، وحجُّوا البيت ثم قالوا لشيء فعله صلى الله عليه وآله وسلم: ألاَ صنع خلاف ما صنع، أَوْ وَجدوا في أنفسهم حرجاً لكانوا مشركين ـ أي: كفاراً ـ ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ الآية.

وقد ذكر الله تعالى موقف المنافقين وموقف المؤمنين مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال سبحانه في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ﴾ ـ أي : أن يظلمهم ـ ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ .

ثم بين موقف المؤمنين : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

قول الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الآية الكريمة .

في هذا بيان من الله تعالى لعباده ، وإعلام لهم بعظيم قَدْر الجنة ، وعلوِّ شأنها ، ورفعة مكانتها ، ولذلك دعا الله تعالى عباده إليها فقال : ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ .

وأمرهم بالمسارعة إليها فقال سبحانه وتعالى : ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

وأمرهم سبحانه بالمسابقة إليها ، ومن المعلوم أنَّ المسابقة فيها الجُهد بزيادة السرعة فقال تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ .

وأمرهم بالمنافسة في الوصول إليها ، وذلك ببذل القوى في العمل إلى الوصول إليها ، فقال سبحانه : ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي : الراغبون في المبادرة إلى رضوان الله تعالى وجنته ، والمتسابقون في تحصيل الخير الدائم، والنعيم المقيم في دار السلام عند مليك مقتدر .

وتقديم : ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ على فعل : ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ دليل

على الحصر ، كما هو معلوم في البلاغة ، والمعنى فليرغب الراغبون، وليبادر المبادرون إلى الخير والنعيم الدائم في ذلك ، لا في الدنيا وأموالها ، ولا زخارفها ، ولا مظاهرها ، ولا وجاهاتها ، ولا في أنواع ملاذها ونعيمها ، فإنها زائلة وهي فانية غير باقية ـ على أن نعيم الدنيا غير خالص بل هو مشوب بالكدر ، ومصحوب بالهمّ والحزن ، والمخاوف والمتالف ، والأسقام والآلام ، والموت الذي لا بدَّ منه ، وفي ذلك تترك الأموال والبنايات وما هنالك.

جاء في الحديث الذي رواه الشيخان ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فصلَّى على أهل أُحُدٍ صلاته على الميت ثم صعد المنبر فقال:

«إني فَرَط لكم ـ أي : سابقكم أنتظركم على الحوض ـ وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أُعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أنْ تشركوا بعدي؛ ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» أي : الدنيا.

ومن جملة أسماء الجنة الدالة على صفاتها الخاصة بها:

دار الخلد وسميت بذلك لأن أهلها لا يخرجون منها أبداً:

قال الله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

كما أَنَّ رزقهم الذي يرزقهم الله تعالى فيها لا ينفد ؛ بل هو خالد دائم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾.

كما أَنَّ عطاءه سبحانه لأهل الجنة لا ينقطع ، قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: غير مقطوع ، بل هو دائم كما قال سبحانه: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ ـ أي: صفتها الملازمة لها ـ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ كما في سورة الرعد.

ومن جملة أسماء الجنة: **دار المقامة**، قال الله تعالى مخبراً عن أهلها بعد أنْ دخلوها: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾.

قال العلامة الخطيب: والنصب: التعب والمشقَّة، واللغوب: هو الفتور الناشىء عنه ـ أي: عن التعب.

وقيل: النصب هو التعب، واللغوب: هو الوجع.

ومن جملة أسماء الجنة: **جنة المأوى**، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ أي: مأواه الذي يأوي إليه ذلك العبد الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ويستقر فيها خالداً مؤبَّداً.

ومن جملة أسماء الجنة: **جنات عدن**، قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ كما في سورة فاطر.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ كما في سورة الصفّ.

وكلمة عَدَن تدل على الإقامة والدوام ، يقال عَدَن بالمكان إذا أقام به .

ومن جملة أسماء الجنة وصفاتها : **جنات النعيم** ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ فهي جنات النعيم التي اشتملت على جميع أنواع النعيم ، التي يتنعم بها أهلها ، من المأكول والمشروب ، والملبوس ، والروائح الطيبة ، والمناظر البهيجة ، والأصوات الحسنة ، والمساكن الواسعة؛ وغير ذلك من أنواع النعيم الظاهر والباطن .

ومن جملة أسماء الجنة وصفاتها : **المقام الأمين** ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ كما في سورة الدخان .

والمقام هو : موضع الإقامة ، والأمين : الذي فيه الأمن من كل سُوء ، وآفة ، ومكروه ، وكَدَر .

والمقام الأمين وهو الجنة ، فإنّه جمع صفات الأمن كلها ، فأهلها آمنون من الخروج ، ومن الموت ، والمكان الذي هم فيه آمن من الخراب ، وأنواع النقص ، والنَكَد ، والكَدَر ، والمزعجات . . .

وهكذا الجنة لها أسماء كثيرة متعددة غير ما تقدم ، وكلها تدل على عظم قدرها ، وعلوِّ شأنها ، ورفعة مكانتها ، وكرامتها ، وفضلها ، ولذلك دعا الله تعالى إليها فقال : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ وأمر بالمسارعة إليها ، وبالمسابقة إليها ، وأمر بالتنافس فيها كما تقدم .

ويجب أن يُعلَم أَنَ الجنة فيها أنواع من النعيم ، وألوان من النِّعَم ، وأصناف من الكرم الإلَهي والفضل الكبير : النعيم الحسي والمعنوي ، والجسماني ، والعقلي ، والقلبي ، والروحاني ، والفضل الإلَهي الكبير ، ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ .

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم أن تجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .

* * *

بشائر رب العالمين
لعباده المؤمنين بأن لهم الجنة

إن الله تعالى قد وصف الجنة لعباده المؤمنين ورغَّبهم فيها وحبَّبَها إليهم وبشَّرهم بها ووعدهم إياها ، وهذا يدل على عظم قدرها ورفعة شأنها وعلوِّ منزلتها وكرامتها .

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾(١) .

وقوله تعالى: ﴿ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ قال يحيى بن أبي كثير وغيره: يؤتى أحدهم بالصحفة - أي: الإناء الكبير - من الشيء - أي: من أنواع الطعام - فيأكل منها ، ثم يؤتى بأخرى فيقول: هذا الذي أُتينا به مِنْ قَبْل ، فتقول له الملائكة عليهم السلام: كُلْ فاللَّون واحد والطعم مختلف . اهـ.

وقال ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم: ﴿ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ قالوا: إنهم أُتوا بالثمرة في

---

(١) سورة البقرة.

الجنة ، فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ـ أي : فقالت الملائكة عليهم السلام لهم : اللون واحد والطعم مختلف[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2] .

فبشائر رب العالمين لعباده المؤمنين لها شأن عظيم ، ومقام كريم .

تنزلات الملائكة عليهم السلام على المؤمنين المستقيمين تبشرهم بالجنة ليفرحوا بفضل الله تعالى وبرحمته

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه الآيات الكريمة .

وإن الملائكة عليهم السلام لا تتنزَّل إلا بأمر الله تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

قال الإمام البخاري في (صحيحه) : باب قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ ثم أسند إلى ابن عباس

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير .

(٢) كما في سورة التوبة .

رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»؟ فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ الآية.

فرح شهداء أُحد بما آتاهم الله من فضله

روى أبو داود، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنه لما أُصيب إخوانكم بأحد، جعل الله تعالى أرواحهم في جوف طير خُضر، تَرِد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظلّ العرش.

فلما وجدوا طِيبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: مَنْ يُبلِّغ إخواننا عَنَّا أننا أحياء في الجنة نُرزق، لئلا يزهدوا في الجنة ولا ينكلوا عند الحرب.

فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾» إلى آخر الآيات كذا في (التيسير) ورواه الإمام أحمد، والحاكم وصححه وغيرهما.

فرح الصحابة رضي الله عنهم ببشارة دخول الجنة

جاء في الحديث ، عن أنس رضي الله عنه قال : لما نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية ـ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أُنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ مما على الأرض» ثم قرأها عليهم .

فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا؟

فنزلت عليه : ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1] .

وفي (تيسير الوصول) : عن أنس رضي الله عنه قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديبية .

فقالوا : هنيئاً لك مريئاً يا رسول الله ، لقد بيَّن الله تعالى لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا؟

فنزلت : ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية أخرجه الشيخان ، والترمذي .

---

(١) قال في (الدر المنثور) : رواه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبخاري ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه إلخ .

فالمؤمنون والمؤمنات يَعبدون الله تعالى لذاته لأنه هو الله رب العالمين ، ويرغبون فيما رغَّبهم الله تعالى فيه ، ويحذرون مما حذَّرهم الله تعالى منه ، ويُحبُّون ما حَبَّبَهُمُ الله تعالى به ، ويكرهون ما كرَّهه الله تعالى إليهم ، ويرضون بما رضيه الله تعالى لهم ، ويُبغضون ما بغَّضهم فيه .

وبيان ذلك: أَنَّ عبادة الله تعالى هي حق ذاتيٌّ لله تعالى على عباده ، ولو لم يخلق جنة ولا ناراً ، وذلك لأن الله تعالى هو ربهم المتصف بجميع الكمالات التي لا نهاية لها؛ لا شريك له فيها ، وهو منزَّه عن جميع النقائص والآفات ، وهو سبحانه وتعالى خالقهم ، وهو رازقهم ، وهو مربيهم ، ومدبر لأمورهم ، وقد بين الله تعالى ذلك لعباده ، ونبَّههم إليه وفصَّل لهم ذلك كله في مواضع متعدِّدة في كتابه العزيز ، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ ـ أي: خلق الذين من قبلكم ـ ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ـ أي: تعلمون أنّه لا خالق غيره ، ولا رازق سواه ـ فلما أمرهم بعبادته سبحانه: بَيَّنَ لهم وجوهاً من الأدلة والبراهين المشهودة في أنفسهم ، وفي الآفاق ، وفي السماء والأرض وما بينهما ، وكل ذلك يدل على وجوب عبادته وحده ، وأَنَّ العبادة هي حق له سبحانه على عباده ، بأن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً ، وإلى هذا يرشد النبي صلى الله عليه وآله وسلم العقلاء والحكماء حيث يقول: كما جاء في (الصحيحين) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه

وآله وسلم ـ أي: راكباً خلفه على الدابة ـ ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرحل.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ بن جبل».

قلت: لـبَّـيْك رسول الله وسعديك ـ ثم سار ساعة ـ أي: مدة من الزمن ـ.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ بن جبل».

قلت: لبيك رسول الله وسَعْديك ـ ثم سار ساعة.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا معاذ بن جبل».

قلت: لبيك رسول الله وسعديك.

قال: «هل تدري ما حق الله على العباد».

قال: قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

ثم سار ساعة ثم قال: «يا معاذ بن جبل».

قلت: لبيك رسول الله وسعديك.

قال: «هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: «أَنْ لا يعذبهم».

هذا لفظ مسلم، وروى البخاري نحوه في مواضع متعددة، قال الحافظ في (الفتح): وفي رواية ابن حبان: «أن يغفر لهم

ولا يعذبهم» ، وفي رواية : «يدخلهم الجنة» ، وفي رواية : «أن يدخلهم الجنة» .

قلت : وإن جميع هذه الروايات جاءت في (مسند) الإمام أحمد ، وجميع هذه الروايات متلازمة ، وهذا الحقُّ وهو أن يدخلهم الجنة ، وأن لا يعذبهم ، وأن يغفر لهم ؛ هذا حقٌّ حقَّه الله تعالى على نفسه ، فضلاً منه وكرماً ، كما قال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

فالمؤمنون يحبون جنة الله تعالىٰ ؛ لأن الله تعالى هو حببهم فيها ، ورغبهم فيها : دعاهم إليها في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ ، وأمرهم بالمسارعة إليها ، والمسابقة إليها ، والتنافس عليها ، وبين لهم أَنَّ فيها رضوانه الأكبر ، ورؤيته جلَّ وعلا ، وسماع كلامه سبحانه ، وسماع تحياته وسلامه سبحانه ، فأحبُّوها ورغبوا فيها ، وراحوا يسألونه سبحانه مُلحِّيْن في السؤال أن يُدخلهم الجنة التي وعدهم الله تعالى بها ، باذلين جهدهم في الأعمال التي تؤهِّلُهم لأن يتفضل الله تعالى عليهم بدخولها .

روى الإمام البخاري في (صحيحه) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن لله ملائكة يطوفون في الأرض يلتمسون ـ أي : يطلبون ـ أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادَوا : هلمُّوا ـ أي : أقبلوا ـ إلى حاجتكم» .

قال : «فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا» .

قال : «فيسألهم ربهم عز وجلَّ وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي»؟

قال: «يقولون: يسبِّحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجِّدُونك».

قال: «فيقول ـ سبحانه ـ: هل رأوني»؟

قال: «فيقولون: لا والله ما رأوكَ».

قال: «فيقول: كيف لو رأوني»؟

قال: «يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً».

قال: «يقول: فما يسألوني».

قال: «يقولون: يسألون الجنة».

قال: «يقول: وهل رأوها»؟

قال: «يقولون: لا والله يا رب ما رأوها».

قال: «فيقول: فكيف لو أنهم رأوها».

قال: «يقولون: لو أنهم رأوها: كانوا أشدَّ عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رغبة».

قال: «فَمِمَّ يتعوذون»؟

قال: «يقولون: من النار».

قال: «يقول: وهل رأوها»؟

قال: «يقولون: لا والله ما رأوها».

«قال: فكيف لو رأوها»؟

قال: «يقولون: لو رأوها كانوا أشدَّ منها فراراً، وأشدَّ لها مخافة».

قال: «فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم».

قال: «يقول ملك ـ من الملائكة ـ: فيهم فلان ليس منهم، وإنما جاء لحاجة» ـ أي: ولم يأت بقصد الذكر ـ.

«قال ـ سبحانه ـ: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» هذا لفظ البخاري في (صحيحه) وقد روى مسلم نحوه وفيه: «فيقول ـ سبحانه ـ: قد غفرت لهم، وأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا».

قال: «يقولون: ربنا فيهم فلان عبد خطّاء ـ أي: كثير الخطأ، أي: الذنوب ـ إنما مرَّ ـ أي: لحاجة ـ فجلس معهم.

قال: «فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم».

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات: أن يعمل بها، وأَنْ يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أَنْ يُبطيء بها ـ أي: بتبليغها لبني إسرائيل ـ.

فقال له عيسى عليه السلام: إنَّ الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإمَّا أَنْ تأمرهم بها، وإمَّا أن آمرهم أنا بها؟

فقال يحيى عليه السلام: أخشىٰ إنْ سبقتني بها أَن يُخسَف بي، أَوْ أُعذَّب ـ أي: أَنْ يعذبه الله تعالى ـ.

فجمع الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد وقعدوا على الشُّرَف فقال:

إنَّ الله تعالى أمرني بخمس كلمات أَنْ أعمل بهنَّ ، وأَنْ آمركم أَنْ تعملوا بهن:

أولهنَّ أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً ، فإنَّ مَثل مَنْ أشرك بالله تعالى: كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أَوْ وَرِق ـ أي: فضة ـ وقال ـ أي: للعبد الذي اشتراه ـ: هذه داري ، وهذا عملي ، فاعمل وأدِّ إليَّ ، فكان ـ أي: العبد ـ يعمل ويؤدِّي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟

وإن الله تعالى أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله تعالى ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك: كمثل رجل في عِصابة ـ أي: جماعة ـ معه صُرَّة فيها مسك ، وكلهم يعجبهم ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله مِن ريح المسك.

وأمركم ـ الله تعالى ـ بالصدقة ـ أي: الزكاة ـ فإنَّ مثل ذلك: كمثل رجل أسره العدوّ ، فأوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدَّموه ليضربوا عنقه ، فقال: أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ـ ففدى نفسه منهم.

وأمركم ـ الله تعالى ـ أَن تذكروا الله تعالى ، فإنَّ مثل ذلك: كمثل رجل خرج العدوُّ في إثره سراعاً ، حتى أَتى على حصن حصين فأحرز ـ أي: حفظ ـ نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يُحرز

نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» الحديث رواه الترمذي وصححه كما في (التيسير).

وهذا الحديث من جملة الأدلة على أَنَّ فريضة الصلاة والصيام والزكاة كانت مشروعة في الشرائع السابقة، ولكن تختلف عن شريعة هذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم في كيفياتها، وفي كميّاتها، وفي عَدَدها، وفي مواقيتها، ومقاديرها؛ كما بيَّنت ذلك مفصلاً في كتاب (الصلاة في الإسلام) فارجع إليه تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

الجنة فيها التجليات الإلّهية الرضوانية على أهلها

قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فرضوانه سبحانه وتعالى عليهم هو أكبر عندهم من التحف والنعيم الذي أُعطوه في الجنة.

جاء في الحديث، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجلَّ لأهل الجنة: يا أهل الجنة.

فيقولون: لَبَّيْك ربنا وسعديك، والخير في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك.

فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: وأيُّ شيء أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

قال في (التيسير): رواه الشيخان، والترمذي.

فرضوانه سبحانه الذي يتجلى به على أهل الجنة؛ هو أكبر عندهم من جميع ما هنالك من أصناف تحف الجنة ونعيمها الذي أُعطوه.

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فالله تعالى هو وعد عباده المؤمنين والمؤمنات بأنْ يدخلهم الجنة، وهو سبحانه ذكر لهم أوصافها ومحاسنها، وألوان نعيمها، وما هنالك من الفضل الكبير الذي يتفضل به عليهم، وحبَّبَهُم فيها؛ فأحبوها، وكيف لا يحبونها وفيها رضوانه، وفيها رؤيته سبحانه وتعالى، وفيها سماع كلامه، وتحيته لهم وسلامه عليهم؛ إلى ما هنالك، والحمد لله رب العالمين.

الجنة فيها رؤية ربِّ العزَّة جلَّ وعلا

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

جاء في الحديث، عن صهيب رضي الله عنه قال: قال

---

(١) أي: لا يعتريهم قَتَر غبار وسواد، ولا ذلة وهوانٌ، بل وجوههم في أكمل البياض والنضارة والحسن.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟

فيقولون: أَلَمْ تُبيض وجوهنا، أَلَم تُدخلنا الجنة، أَلَم تُنجنا من النار؟

قال: فيُكشَف الحجاب، فما أُعطُوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ رواه مسلم، والترمذي كما في (التيسير).

فالحسنى هي: الجنة، وزيادة الفضل والمنَّة هي: رؤية ربِّ العزة جل وعلا، كما جاء عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «للذين أحسنوا العمل في الدنيا ـ أي: بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ـ لهم الحسنى وهي الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم»[(١)].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإنِ استطعتم أَنْ لا تُغلَبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها؛ فافعلوا»[(٢)] ثم قرأ صلى

---

(١) عزاه في (الدر المنثور): إلى أبي الشيخ، وابن منده، والدارقطني، وابن مردويه، وابن النجار وغيرهم، وله شواهد وطرق متعددة.

(٢) أي: فاحرصوا على أن لا يغلبكم النوم عن صلاة الصبح في وقتها، =

الله عليه وآله وسلم: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[1].

قال في (جامع الأصول): «لا تضامون» رُوِيَ بتخفيف الميم من الضيم ـ الظلم ـ والمعنى: إنكم ترونه جميعاً لا يُظَلم بعضكم في رؤيته؛ فيراه البعض دون البعض.

قال: ورويَ بتشديد الميم من الانضمام والازدحام ـ أي: لا يُزدحم بكم في رؤيته سبحانه، ويضم بعضكم إلى بعض من ضيق كما يجري عند رؤية الهلال مثلاً دون رؤية القمر، إذ يراه كلٌّ منكم موسعاً عليه منفرداً. ا هـ.

ثم قال: «كما ترون» قد يخيَّل إلى بعض السامعين أَنَّ الكاف في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كما ترون» كاف التشبيه للمرئي ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما هو كاف التشبيه للرؤية، وهي فعل الرائي، قال: ومعناه: ترون ربكم رؤية ينزاح ـ أي: يزول ـ معها الشك كرؤيتكم القمر ليلة البدر، لا ترتابون فيه ولا تمترون. ا هـ.

وروى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة»؟

= وأن لا يغلبكم العمل في الدنيا عن صلاة العصر في وقتها.

(١) كذا في (جامع الأصول) وقال: أخرجه البخاري ومسلم، والترمذي، قال: وأخرجه أبو داود وقال: «ليلة أربع عشرة».

قالوا: لا.

قال: «هل تضارُّون في رؤية القمر ليس في سحابة»؟

قالوا: لا.

قال: «والذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»[1] الحديث بطوله.

وروىٰ الشيخان، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ الناس ـ أي: الصحابة ـ قالوا يا رسول الله: هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هل تمارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب»؟

قالوا: لا يارسول الله.

قال: «هل تمارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب».

قالوا: لا.

قال: «فإنكم ترونه كذلك» الحديث بطوله[2].

فالله سبحانه وتعالى يتجلَّى على جميع أهل الجنة خاصتهم وعامَّتهم برؤيته سبحانه وتعالى في يوم الجمعة، الذي يُسمى هناك

---

(١) والمعنىٰ: لا تضارون في رؤيته أبداً جلَّ وعلا.

(٢) وقد ذكرت هذا الحديث والذي قبله بطولهما في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) في مناسبة موقف السؤال، وموقف الامتحان الاعتقادي والعملي، الذي يجري يوم القيامة ـ فارجع إليه ينفعك الله تعالى به إن شاء الله تعالى.

يوم المزيد ـ كما ورد ذلك في حديث رواه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، والدارقطني وغيرهما وله طرق متعددة .

وأما الخواص من أهل الجنة فإنهم يرونه سبحانه وتعالى أيضاً في بقية أيام الأسبوع :

جاء في الحديث ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة لَمنْ ينظر إلى جنانه ، وأزواجه ، ونعيمه ، وخدمه ، وسرره ؛ مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله تعالى : من ينظر إلى وجهه غُدوةً وعشيةً» ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

قال في (الترغيب) : رواه الترمذي، وأبو يعلى ، والطبراني ، ورواه أحمد مختصراً ولفظه : قال : «إنَّ أدنىٰ أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخَدمِهِ» .

الجنة فيها : التحيات والتسليمات الإلٓهية المتوالية على أهلها

قال الله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ أي : سلام دائم صادر قولاً من ربٍ رحيم علىٰ أهل الجنة ، كما جاء بيان ذلك في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم .

روى ابن ماجه ، عن جابر رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم

نور ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الربُّ جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة.

وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، وتبقى فيهم بركته ونوره»[١].

فالتجليات الإلٰهية على أهل الجنة بالرؤية متعددة ، ولكلٍ منها أحكام وخصائص ، وأعظمها تجلّيه سبحانه يوم الجمعة المسمى في الملأ الأعلى يوم المزيد ، ونسأل الله تعالى أن يتفضل علينا بجاه حبيبه الأكرم ورسوله المعظم صلى الله عليه وآله وسلم ـ آمين.

فيا ربِّ بالخِلِّ الحبيب محمدٍ ﷺ رسولك وهو السيد المتواضع
أنِلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قلوب الأولياء تسارع
فبابك مقصود وفضلك زائد وجودك موجود وعفوك واسع
آمين

الجنة فيها سماع القرآن من الله الرحمن جلَّ وعلا

روى صاحب (الفردوس) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كأنَّ الخلق لم يسمعوا القرآن حين يسمعونه من الرحمن يتلوه عليهم يوم القيامة»[٢].

وروى السجزي في (الإبانة) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً:

---

(١) ورواه البيهقي وأبو نعيم بأطول من ذلك.

(٢) ذكره في (الجامع الصغير) رامزاً لضعفه لكن له شواهد ، وانظر ذلك في (الفتح الكبير) أيضاً.

«كأنَّ الناس لم يسمعوا القرآن حين يتلوه الله تعالى عليهم في الجنة».

وأخرج أبو الشيخ، عن محمد بن كعب القرظي قال: (كأن الناس ـ أي: المؤمنين ـ لم يسمعوا القرآن قبل يوم القيامة حين يتلوه الله تعالى عليهم).

والمعنى: أَنَّ المؤمنين حين يسمعون القرآن في الجنة من الله تعالى كأنهم ما سمعوه مِن قبل حين كانوا في الدنيا[1].

ومن إكرام الله تعالى لصاحب القرآن استمراره على قراءته في الجنة وترقِّيه:

فقد روى الترمذي وغيره، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتِّل كما كنت تُرتِّل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها».

فهو لا يزال يقرأ ولا يزال يترقى في المنازل، فثواب تلاوة القرآن لا ينقطع أبداً.

الجنة فيها كلام ربِّ العزَّة مع أهل الجنة

قال الإمام البخاري في (صحيحه): باب كلام الربّ مع أهل الجنة.

---

(١) وقد ذكرت في كتابي (حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين) ذكرت ما رواه الحكيم الترمذي في سماع أهل الجنة القرآن حين يتلوه عليهم ربُّ العزة سبحانه وتعالىٰ.

ثم أسند إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة.

فيقولون: لَبَّيْكَ ربَّنا وسَعديْك والخير في يديك.

فيقول: هل رضيتم؟

فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تُعط أحداً من خلقك.

فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟

فيقولون: يا ربِّ وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟

فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

ثم أسند البخاري إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يُحدِّث يوماً وعنده رجل من أهل البادية: «أَنَّ رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع ـ أي: في أن يزرع فقال ـ سبحانه ـ: أوَلستَ فيما شئتَ؟ ـ أي: من أنواع النعم والنعيم ـ.

قال: بلى ولكن أُحبُّ أن أزرع» ـ أي: لأنه كان في الدنيا يحب أن يزرع.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأسرع ـ أي: الرجل ـ وبذر فتباد الطرفَ نباتهُ، واستواؤه واستحصاده وتكويره ـ أي: جمعه في البيدر ـ أمثال الجبال.

فيقول الله تعالىٰ: دُونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء».

فقال الأعرابي: يا رسول الله لا تجد هذا ـ أي: الذي زرع في الجنة ـ إلا قُرشياً أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع.

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصالحين: ما لا عين رأيتْ، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر».

ومصداق ذلك في كتاب الله تعالىٰ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

وفي رواية، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين: ما لا عين رأيت، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خطر على قلب بشر، ذُخراً بَلْهَ ما أطلعتكم عليه».

ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

بله من أسماء الأفعال بمعنى اترك، والمعنى: اترك ما اطَّلَعْتُم عليه من نعيم الجنة، وعرفتموه من لذاتها، فهذا الذخر المدخر هو فوق ذلك وأعلى، يعطونه علاوة على ذلك.

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سأل موسى عليه السلام ربه تعالى: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟

قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: أيْ ربِّ وكيف وقد نَزَل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟.

فيقال له: أما ترضى أن يكون لك مثلُ ملك من ملوك الدنيا؟

فيقول: ربِّ رضيتُ.

فيقول ـ سبحانه ـ: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله.

فيقول في الخامسة: رضيت ربِّ.

فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك.

فيقول: ربِّ رضيتُ.

فقال ـ موسى عليه السلام ـ: فأعلاهم منزلة.

قال ـ سبحانه ـ: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر» رواه مسلم، والترمذي.

موضع قدم في الجنة خير من الدنيا وما فيها

روى الإمام البخاري في باب صفة الجنة والنار من (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه ، أَنَّ أُمَّ حارثة أتتْ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد هلك ـ أي : قتل ـ حارثة يوم بدر ، أصابه غَرْب سهم ـ أي : لايُدرىٰ من رماه ـ.

فقالت : يا رسول الله قد علمت موضع حارثة من قلبي ، فإن كان في الجنة لم أبك عليه ، وإلاَّ سوف ترى ما أصنع .

فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم : «هَبِلْتِ؟ أجنَّة واحدة هي؟ إنَّها جنان كثيرة ، وإنه في الفردوس الأعلى» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «غدوة في سبيل الله أو روحة : خير من الدنيا وما فيها ، ولَقَاب قوس أحدكم ـ أو موضع قدم ـ من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أَنْ امرأة من نساء أهل الجنة اطَّلعتْ إلى الأرض لأضاءتْ ما بينهما ، ولملأتْ ما بينهما ريحاً ، ولَنَصيفها ـ يعني : الخمار ـ خير من الدنيا وما فيها» .

هكذا يُخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، ويبين ذلك لأمته ، حتى لا يتنافسوا على الدنيا ، فإنها لا تعادل موضع قدم في الجنة ، بل يتنافسون على جنة ربِّ العالمين ، ودار كرامته لعباده المؤمنين ، يتنافسون على جناتٍ ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، يتنافسون على جنة فيها المعية لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وحبيبه الأكرم ، وفيها مرافقته كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك ورسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ آمين .

وقد أنزل الله تعالى تلك الآية بسبب أنَّ أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خافوا أن لا يروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة ، لرفعة مقامه وعلو منزلته التي خصه الله تعالى بها ، فأنزل هذه تبشرهم بالمعية والمرافقة ، والحمد لله رب العالمين على هذا الفضل العظيم .

سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أوَّل مَنْ يدخل الجنة

روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح .

فيقول الخازن: مَنْ أنتَ؟

فأقول : محمد .

فيقول: بكَ أُمرتُ ـ أي: أمرني الله تعالى ـ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك» .

وروى مسلم أيضاً ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أكثر الناس تَبَعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة» .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم هو الفاتح الأول لباب الجنة ، وهو

أول داخل فيها، والكلُّ يدخلون من ورائه، فإذاجاؤوها رأوها مفتحةً لهم الأبواب ، نعم فتحها الفاتح الأول صلى الله عليه وآله وسلم، الذي أعطاه الله تعالى أوّليات أعالي المراتب والفضائل والكمالات.

قال الله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ـ أي: والحال قد فتحت أبوابها من قبل ـ ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
هم أكثر أهل الجنة

روى الإمام أحمد ، عن بُريدة عن أبيه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، هذه الأمة مِنْ ذلك ثمانون صفّاً»(١) .

وقد ذكره في (الجامع الصغير) ولفظه:

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وأخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجه. ا هـ.

«أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من هذه الأمة ، وأربعون من سائر الأمم»[١] .

ورواه الطبراني بإسناده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ، ثمانون منها من أمتي» .

قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى : لا يعارضه خبر ابن مسعود رضي الله عنه «أنتم شطر أهل الجنة» وفي رواية : «نصفهم» ، لأن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم رجا أَوَّلاً أَنْ يكونوا نصفاً فأعطاه الله تعالى رجاءه ، ثم زاده سبحانه . ا هـ .

ورواية الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «كيف وأنتم ربع أهل الجنة ، لكم ربعها ولسائر الناس ثلاثة أرباعها» .

فقلنا : الله ورسوله أعلم .

فقال : «كيف أنتم وثلثها»؟

قالوا : فذلك أكثر .

ثم قال : «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها من أمتي»[٢] فأهل الجنة عشرون ومائه صف ، وكل صف لا يعلم عدده إلا الله تعالى ، ثمانون من هذه الأمة المحمدية والحمد لله .

---

(١) ورمز لصحته ، وعزاه إلى الإمام أحمد ، والترمذي وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم عن بريدة ، والطبراني عن ابن عباس وعن ابن مسعود وأبي موسى رضي الله عنه . ا هـ .

(٢) كذا في (تفسير) ابن كثير .

من إكرام الله تعالى لهذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم أن جعلهم أكثر أهل الجنة دخولاً الجنة لكرامة سيدنا محمد على الله تعالى

قال الإمام البخاري في (صحيحه): بابٌ يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب.

ثم أسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «عُرِضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمر ومعه الأمة، والنبي يمر معه النفر ـ أي: العدد القليل ـ والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرتُ فإذا سَواد كثير ـ أي: جمع كثير ـ.

قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟

قال: لا ـ ولكن انظر إلى الأفق ـ أي: الأفق المحيط بجميع الأطراف[1].

فنظرتُ فإذا سواد كثير.

قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدَّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب.

---

(١) كما جاء في (صحيح) مسلم: «فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم» الحديث.

قلت: ولِمَ؟

قال: كانوا لا يكتوون، ولا يَسْتَرْقُون، ولا يتطيَّرون، وعلى ربهم يتوكلون».

فقام إليه عكاشه بن محصن رضي الله عنه: فقال: ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اجعله منهم».

ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبقك بها عكاشة».

ثم روى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «يدخل من أمتي ـ أي الجنة ـ زمرة هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر».

قال أبو هريرة رضي الله عنه: فقام عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم.

قال: «اللهم اجعله منهم».

ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبقك عكاشة».

ثم رَوَى بعد ذلك عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليدخلَّن الجنة من أمتي

سبعون ألفاً ـ أو «سبعمائة ألف» شكَّ[1] في أحدهما ـ متماسكين ، آخذ بعضهم ببعض ، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة ، ووجوههم على ضوء القمر ليلة البدر» وقد روى مسلم في (صحيحه) ما تقدم .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أعطيتُ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجل واحد .

فاستزدت ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً» .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : فرأيتُ أَنَّ ذلك آتٍ على أهل القرىٰ ومصيب من حافات البوادي) .

وروىٰ الإمام أحمد أيضاً ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إن ربي أعطاني سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب» .

فقال عمر : يا رسول الله هلاَّ استزدتَه؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «قد استزدته ، فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً» .

فقال : فهلاَّ استزدته .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «قد استزدتهُ فأعطاني هكذا»

---

(١) أي : أبو حازم الراوي عن سهل بن سعد رضي الله عنه كما جاء مصرحاً به في (صحيح) مسلم .

وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه[1].

وروى الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب (السنن) له بسنده، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «وعدني ربي أنْ يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيات من حثيات ربي عز وجل»[2].

ورواه الترمذي عن أبي أُمامة الباهلي وقال: حسن غريب، كذا في (جامع الأصول).

وروى أيضاً أبو بكر بن أبي عاصم من طريق أخرى، عن أبي أُمامة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله وعدني أَنْ يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فإن الله وعدني سبعين ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً، وزادني ثلاث حثيات»[3].

قال في (النهاية): ثلاث حثيات من حثيات ربي تبارك وتعالى هو كناية عن المبالغة في الكثرة؛ وإلاَّ فلا كفَّ ثَمَّ ولا حَثْيَ ـ جلَّ الله عن ذلك وعزَّ. اهـ.

---

(١) انظر (تفسير) ابن كثير.

(٢) قال الحافظ ابن كثير: وكذا رواه الطبراني وإسناده جيد.

(٣) قال الحافظ ابن كثير: وهذا أيضاً إسناد حسن. اهـ والحمد لله رب العالمين على هذا الفضل العظيم، يقال في اللغة: حثا يحثو حثواً، ويحثي حثياً إذا غرف بيده، واحدها حثية. كما في (النهاية).

قال عبد الله: وهذا الفضل العظيم الذي تقدم ذكره هو من جملة الفضائل التي أكرم الله تعالى بها أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، تكريماً لسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي هو أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى.

فقد روى الترمذي وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا ، ولواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» أي: يقول ذلك متحدثاً بما أمره الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي ، والدارمي ، يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم : «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة؛ تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر».

ثم قال: «وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر» صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

أهل الجنة يدخلون الجنة زُمَراً

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾

الكلام على هذه الآيـة له وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ سَوْقَ تكريم وتلطيف، إسراعاً بهم إلى دخول الجنة، التي فيها النعيم المقيم، ودار كرامة الرحمن الرحيم، وهم في أشد الاشتياق إليها.

الثاني: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ أي: جماعة بعد جماعة، على حَسب مراتبهم في التفاضل، ورفعة الدرجات، مصنَّفين أصنافاً، كل صنف مع صنفه.

وفي (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أوَّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّيٍّ في السماء إضاءة» الحديث كما تقدم.

الثالث: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: وقد فتحت لهم أبوابها، فتحها الفاتح الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: مَنْ؟ فأقول محمد، فيقول الخازن: بكَ أُمِرْتُ ـ أي: أمرني الله تعالى ـ أَنْ لا أفتح لأحد قبلك» رواه مسلم كما تقدم.

فلما جاؤوا ليدخلوها وجدوها مفتحةً لهم الأبواب كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك ورسولك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً، وعلينا معهم أجمعين.

وقد بيَّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدد أبواب

الجنة ، وبيَّن سعة تلك الأبواب ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي علَّمه الله تعالى البيان عن القرآن ، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي: علينا أَنْ نُبين لك هذا القرآن ، فبعد ما بينه الله تعالى له ، قال له صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، ففي أحاديثه بيان للقرآن الكريم ، فهما متلازمان لا يفترقان ، وقد تكفَّل سبحانه وتعالى بحفظ القرآن من التلاعب والتبديل والتغيير ، على مدى الأزمان قال: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ ويدخل في تلك الكفالة الإلٰهية لزوماً حفظ بيان القرآن ، وهو أحاديثه الثابتة عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، التي فيها البيان عن القرآن ، وهذا التلازم بين الكتاب والسنة ـ أي: أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم قد نبه إليه صلى الله عليه وآله وسلم في عدة من الأحاديث ومنها:

روى مالك في (الموطأ) أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى وسنة رسوله» صلى الله عليه وآله وسلم .

الرابع: قوله: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ وهي ثمانية ، كما جاء بيان ذلك في الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم:

جاء في (الصحيحين) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أنفق زوجين من شيء مِنَ الأشياء في سبيل الله تعالىٰ دُعي من أبواب الجنة ، يا عبد الله: هذا خير ؛ فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصدقة

دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ، وباب الريَّان».

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة ، وهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «نعم ـ وأرجو أن تكون منهم» كذا في (صحيح) البخاري .

وروى البخاري في (صحيحه) عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريَّان ، لا يدخله إلا الصائمون» .

وروى مسلم في (صحيحه) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلِّغ ـ أو فيسبغ ـ الوضوء ـ أي : يأتي به كاملاً ـ ثم يقول : أشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله : إلاَّ فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيِّها شاء» .

ورواه الترمذي بزيادة بعد التشهد : «اللهم اجعلني من التوَّابين واجعلني من المتطهرين» .

ورواه أبو داود ، والإمام أحمد بزيادة : «ثم رفع نظره إلى السماء فقال : اللهم» إلى آخره .

وروى الإمام أحمد في رواية ، عن أنس رضي الله عنه يرفعه : «من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قال ثلاث مرات : أشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أَنَّ محمداً عبده ورسوله :

فتحت له ـ أي: يوم القيامة ـ أبواب الجنة الثمانية من أيتها شاء دخل».

الخامس: وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سعة أبواب الجنة:

جاء في بعض الأحاديث الواردة في شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم ما يلي ـ والرواية لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً بلحم، فرُفِعَ إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة ـ أي: أخذ شيئاً من لحم الذراع ـ فقال: صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا سيد الناس يوم القيامة[1] ـ أي: سيد جميع الناس بإقرارهم واعترافهم ـ وهل تدرون بمَ ذاك؟

يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، فيُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر[2]، وتدنوا الشمس منهم، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون.

فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه، ألا ترون ما قد بَلَغَكم ـ أي: من الغم والكرب ـ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟

---

(١) أي: ومن المعلوم أَنَّ سيد القوم هو خيرهم، وهو مرجعهم في جميع مهام أمورهم وشدائدهم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم السيد الأكرم العامّ، وهو المرجع في الشدائد والكربات يوم الزحام.

(٢) أي: يبلغهم بصر الناظر أولهم وآخرهم، حتى يراهم كلهم لاستواء الصعيد ـ أي: المكان ا هـ. كما في (النهاية).

فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم.

فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك: اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا.

فيقول آدم: إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله».

وهكذا فيُحيلهم آدم عليه السلام إلى نوح عليه السلام، فيأتون نوحاً عليه السلام فيُحيلهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام، فيأتونه فيحيلهم إلى موسى عليه السلام، فيأتونه فيُحيلهم إلى عيسى عليه السلام، فيأتونه فيحيلهم إلى سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّرَ، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بَلَغَنا»؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليَّ، ويُلهمني من محامده وحُسن الثناء عليه شيئاً لَمْ يفتحه لأحد قبلي، ثم قال ـ سبحانه ـ يا محمد: ارفع رأسك، سَلْ تعطه، واشفع تُشفع» ـ أي: تُقبل وتجاب شفاعتك ـ.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأرفع رأسي فأقول: يا ربِّ أُمتي أُمتي.

فيقال: يا محمد أَدخل الجنة من أُمتك مَنْ لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة الثمانية، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «والذي نفس محمد بيده إنَّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَر، أو كما بين مكة وبُصرى».

وقد ذكرت هذا الحديث بتمامه، وشرحته شرحاً مفصلاً في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) كما ذكرت فيه الأحاديث الواردة في الشفاعة العامة العظمىٰ، والأحاديث الواردة في شفاعاته الخاصَّة صلى الله عليه وآله وسلم، وبيان أنواعها مفصلة ومشروحة، والحمد لله رب العالمين.

معرفة المؤمنين بمنازلهم في الجنة إذا دخلوها

قال الله تعالىٰ: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

والمعنى أنه سبحانه يهدي المؤمنين إلى الجنة، ويصلح بالهم ـ أي: حالَهم وشأنهم ـ فلا يصيبهم يوم القيامة ذلٌّ ولا خوف، ولا يسوء لهم حال، ويدخلهم الجنة عرَّفهم بها، وهداهم إليها سبحانه، وعرفهم بمنازلهم التي أُعِدَّت لهم في الجنة، فكل منهم يعرف منزله فيذهب إليه.

روى الإمام البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يخلُص المؤمنون

ـ أي: يوم القيامة ـ من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض؛ مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا؛ أُذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة ـ أي: أعرف بمنزله في الجنة ـ منه بمنزله كان في الدنيا» كذا في (التيسير).

تفاوت درجات أهل الجنة لتفاضل ما بينهم

روى الشيخان ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغُرف ـ القصور العالية ـ كما تتراءون الكوكب الدُريَّ الغابر في الأفق ، من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم».

قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يَبلغها غيرهم؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

وروىٰ الشيخان ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أهلِ الجنة ليتراءون أهل الغُرف ـ أي: المنازل العالية ـ كما تتراءون الكوكب في السماء» كذا في (التيسير).

تزاور أهل الجنة بعضهم لبعض وتذكُّرهم أموراً مرَّتْ عليهم في الدنيا وَذِكْرهم فضل الله تعالى عليهم

قال الله تعالى في سورة الطور: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ .

يخبر الله تعالى عن أهل الجنة بعد ما دخلوها ، وعمَّا يجري بينهم من الحديث حول ما كانوا عليه في الدنيا ، وأنهم كانوا في الدنيا مُشفقين ـ أي: خائفين خوفاً شديداً ـ مشفقين من عذابه وعقابه سبحانه وحسابه ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: تفضَّل علينا ، فجعلنا في أمان مما هنالك ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ فأكرمنا وأجارنا من عذاب السموم ـ أي: عذاب جهنم ـ والأصل في السَّموم أنها الريح الحارَّة الشديدة التي تتخلل المسامّ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ﴾ أي: حين كانوا في الدنيا ﴿نَدۡعُوهُ﴾ نعبده ونسأله متضرعين إليه ، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا؛ فضلاً منه وكرماً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ كثير البِرِّ والإحسان ، والطَّول والإنعام ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده ، الموصل إليهم الخير ، والذي يدفع عنهم الشر.

فتذكروا ما كانوا عليه في الدنيا ، وتذاكروا ، ثم ذكروا فضل الله تعالى عليهم ، ومنته وإحسانه إليهم.

روى ابن أبي شيبة ، وعبد الرزاق ، والبيهقي في (الشعب) عن الصِّدِّيقة بنت الصديق أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها ـ أنها قرأتْ هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقالت: (اللهم مُنَّ علينا وقِنا عذاب السَّموم إنك أنت البر الرحيم).

وروى البزار ، وابن أبي الدنيا ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا دخل أهل الجنة

الجنة ، فيشتاق الأخوان بعضهم إلى بعض ، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعاً ، فيتكىء هذا ، ويتكىء هذا ـ أي: على سريرهما ـ فيقول أحدهما لصاحبه: أتعلم متى غفر الله لنا؟.

فيقول صاحبه: نعم يوم كنا في موضع كذا وكذا ، فدعونا الله تعالى فغفر لنا» كذا في (الترغيب) و(الدر المنثور).

حملة العرش العظيم ومن حوله يدعون الله تعالى للمؤمنين بالمغفرة وأن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات النعيم

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾.

فالله تعالى يُخبر عباده ويبين لهم أَنَّ حملة عرشه ومَن حوله ملازمون لتسبيحه وحمده سبحانه ، ودائبون على الإيمان به ، والاستغفار للمؤمنين.

أما التسبيح فهو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به ، وأمَّا الحمد فهو إثبات المحامد له لكماله ولنواله ، وذلك أن الله تعالى له الحمد على كمالاته الذاتية ، وصفاته العلية ، وعلى إحسانه

وإنعامه ، وفضله وكرمه على سائر مخلوقاته ، على وجه لا يحصى ولا يستقصىٰ ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ وأما قوله : ﴿ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي : يؤمنون به إيماناً عملياً ، وهو قيامهم بأنواع العبادات التي يعبدون الله تعالى بها من : سجود وركوع ، وصلوات ، وغير ذلك من التعبدات التي يأمرهم الله تعالى بها .

فإن الإيمان يُطلق على الإيمان الاعتقادي القلبي كما هو معلوم ، وقد يطلق على الإيمان العملي المبني على الإيمان الاعتقادي .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ وقد نزلت هذه في الصلاة كما في (صحيح) الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما وُجِّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ ـ أي : ما حُكم صلواتهم الماضية قبل التحول إلى الكعبة المشرفة ـ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾ أي : صلاتكم ونحوها من بقية الأعمال الإيمانية التعبدية ، فأراد بالإيمان هنا الصلاة .

وهكذا وصف سبحانه وتعالىٰ حملة العرش ومَنْ حوله بأنّهم دائبون على التسبيحات والتحميدات القولية ، ودائمون على العبادات العملية .

كما أنَّه سبحانه وصفهم بقوله : ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ ﴾ أي : لمناسبة الإيمان الجامعة بينهم ، فإنها جعلت فيهم ولاءً ومحبة للمؤمنين ، وشفقة ونصيحة لهم ، كما أخبر الله تعالى عن الملائكة

الذين تنزل على الذين استقاموا فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ﴾ ـ أي: محبون لكم وناصروكم وناصحون ـ مأخوذ من الولاء وهو المحبة والنصرة ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآية وقد تقدم الكلام عليها.

فالذين يحملون العرش ومَنْ حوله يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ رجعوا إلى الله عما لا يرضاه ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: صراط شريعتك الذي أقمته لهم، وأمرتهم أن يسيروا على منهاجه، مستقيمين عليه دون أن ينحرفوا، أو يعوجوا، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وبهذا تمام الفضل والنعمة، والمنَّة على عباد الله المؤمنين، كما أنَّ في ذلك قرة أعينهم بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ فيُدخل الله تعالى من صلح منهم الجنة إلحاقاً بهم، وإكراماً لهم، ليزداد سرورهم من جميع الوجوه والاعتبارات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: إيماناً كاملاً عظيماً ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ أي: دون إيمان آبائهم ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية أي: تكريماً لأصولهم الصالحين الصادقين.

قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وهذا دعاء لهم أن يحفظهم

الله تعالى من السيئات والمكاره؛ في الدنيا والآخرة، فلا يسوء لهم حال، ولا تسوء لهم وجوه يوم القيامة، كما هو في الكفرة ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ أي: برحمتك الخاصة، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ وفي قوله تعالى: ﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ملازمة أهل الجنة
للتسبيح والتحميد والتكبير لله تعالى العلي الكبير

روى مسلم في (صحيحه) عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوَّطون، ولا يمتخطون».

قالوا: فما بال الطعام؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «جُشاء ورشح كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَّفَس».

وفي رواية له أيضاً: «يلهمون التسبيح والحمد كما تُلهمون النَّفس».

وفي رواية له أيضاً قال: «يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النَّفَس».

وهذا يدل على أن نعيمهم وطعامهم وشرابهم؛ لا يَشغلهم عن

تسبيح الله تعالى وتحميده ، وتكبيره ، كما لا ينشغل الآكل والشارب عن النَّفَس .

كما يدل ذلك على أن تسبيحهم وتحميدهم وتكبيرهم لله تعالى لا كلفة فيه ولا مشقة ، بل هو كَلَفٌ بغير تكلف ، وذلك كالنَّفس لا كلفة فيه ولا مشقة ، وبه الحياة كما هو معلوم .

كما أَنَّ الجنة فيها التنعم بتلاوة القرآن المجيد ـ كما تقدم في الحديث الذي رواه الترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يقال ـ أي : في الجنة ـ لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتِّل كما كنت ترتّل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» ـ أي : فهو لا يزال يقرأ ، ولا يزال يترقى ـ جعلنا الله تعالى منهم بجاه الحبيب الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم .

فضل من سأل الله تعالى الجنة واستجار به من النار

جاء في الحديث ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مَنْ سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة .

ومَن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار»[1] .

---

(١) قال في (الترغيب) : رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وقال : صحيح الإسناد . ا هـ .

وروى أبو داود الطيالسي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قال أسأل الله الجنة سبعاً قالت: الجنة: اللهم أدخله الجنة».

وروى أبو نعيم في (صفة الجنة) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أكثروا مسألة ـ أي: سؤال ـ الله الجنة ، واستعيذوا به من النار ، فإنهما شافعتان مُشَفَّعات ، وإنَّ العبد إذا أكثر مسألة الله الجنة قالت الجنة: يا رب عبدك هذا الذي سألنيك فأسْكِنْـهُ إيّاي.

وتقول النار: يا ربِّ عبدك هذا الذي استعاذ بك مني فأعذه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما استجار عبد من النار سبع مرات إلاَّ قالت النار: يا ربّ إنَّ عبدك فلاناً استجار مني فأجره.

ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إنَّ عبدك فلاناً سألني فأدخله الجنة»[1].

فواظب على ذلك أيها المسلم والمسلمة في جملة أدعية الصباح والمساء ، والأحسن وراء كل صلاة فإن ذلك سبب عظيم في دخول الجنة والوقاية من النار.

وروى البيهقي ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يا معشر المسلمين ارغبوا فيما رغبكم الله

---

(١) قال في (الترغيب): رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم. ا هـ.

فيه[1] ، واحذروا مما حذَّركم الله منه ، وخافوا مما خوفكم الله به : من عذابه وعقابه ، ومن جهنم .

فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها حلَّتها لكم[2] .

ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خَبَّثَتْها[3] ـ أي : أفسدتها ـ عليكم» كذا في (الترغيب) .

الجنة والنار هما مخلوقتان وموجودتان

يجب على الإنسان الإيمان بوجود الجنة والنار الآن ، ثبت ذلك في الكتاب والسنة :

أما الكتاب فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي : أعدها الله تعالى منذ خلقها للمتقين ، فهي مخلوقة ومعدَّة لهم منذ خلقها .

وقال في النار : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : خلقها الله تعالى وأعدها للكافرين .

وقال تعالى في الجنة : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ .

فقد رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج ـ رأى

---

(١) أي : الجنة وأعمالها .

(٢) أي : لجعلت جميع مياه الدنيا حلواً طيباً .

(٣) أي : جعلت مياه الدنيا خبيثة .

سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوىٰ ، كما جاء في (الصحيحين) من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة الإسراء وفيه: «ثم انطلق بي جبريل حتى أتىٰ سدرة المنتهى ، فغشيها ألوان لا أدري ماهي ، ثم دخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك».

قال في (الفتح): الجنابذ شبه القِباب ، واحدها جُنبذة بالضم ، وهو ما ارتفع من البناء واستدار ، فهو فارسي معرَّب. ا هـ.

وعن عبد الله بن عمر رضي عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مات أحدكم عُرِض عليه مقعده بالغداة والعشيِّ : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة» أخرجه الستة إلا أبا داود كما في (التيسير).

فَـيُعْرَض على الإنسان حين يصير في قبره في الغداة والعشيّ؛ يعرض عليه مقعده في الجنة إن كان من أهل الجنة ـ أي : مؤمناً ـ ويفرح بذلك ويُسرُّ ، ويأتي إليه منه الروح والريحان ، وما شاء الله تعالى من النعيم فوق نعيمه في القبر.

وأما الكافر فيعرض عليه في قبره في الغداة والعشيِّ؛ يُعْرض مقعده من النار ، ويأتي إليه ألوان من العذاب والمخاوف فوق عذابه الذي يُعذب به في قبره.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ـ أتاه ملكان ، فيُقعدانه فيقولان له: ما كنتَ تقول في هذا الرجل؟ محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فأما المؤمن فيقول: أَشهد أَنَّه عبد الله ورسوله.

فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة ـ فيراهما جميعاً، ويفتح له من قبره إليه.

وأما الكافر والمنافق فيقول: لا أدري، كنت أقول كما يقول الناس.

فيقال: لا دَرَيْتَ ولا تليتَ ـ ثم يضرب بمطرقةٍ من حديد بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها مَنْ يليه إلاَّ الثقلين» أي: الإنس والجن.

قال في (التيسير): أخرجه الخمسة إلا الترمذي، وقد تقدم معنا شرح هذا الحديث.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيراهما جميعاً» دليل قاطع على وجود الجنة والنار.

ومما يدل دلالة قاطعة نصاً على خلق الجنة والنار، وأنهما موجودتان، الحديث الذي رواه أصحاب السنن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما خلق الله تعالى الجنة قال لجبريل عليه السلام: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلاَّ دخلها ـ أي: لما فيها من بدائع المحاسن وأنواع النعيم ـ.

فحفَّها بالمكاره ثم قال: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها فقال: وعزَّتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد.

ولما خلق ـ الله تعالى ـ النار قال لجبريل: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها، فقال: وعزَّتك لا يسمع بها أحد فيدخلها.

فحفَّها بالشهوات ثم قال: اذهب فانظر إليها.

فذهب فنظر إليها فلما رجع فقال: وعزتكَ لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دخلها» كذا في (التيسير).

فالجنة مُحاطة ومحفوفة بالمكاره، والمراد بالمكاره هنا التكاليف الشرعية، المشتملة على الأوامر والمناهي، والحلال والحرام، وأطلق عليها المكاره لأنها ثقيلة ومكروهة عند أهل النفوس الأمَّارة بالسوء، المنغمسة في الشهوات، فإنهم يرون أنَّ فيها كلفة ومشقة عليهم لأنها تمنعهم عن المفاسد والشهوات المحرمة.

أما عند أهل الإيمان، الذين طابت نفوسهم، واطمأنت على شريعة الله تعالى؛ فإنها محبوبة لديهم يكلَفونها كَلفًا بغير تكلف ولا مشقة، ويرون فيها نعيمهم ولذَّتهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ـ أي: ثقيلة ـ ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ـ أي: يعتقدون ويؤمنون ـ ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فإنها لم تثقل عليهم لأنهم خاشعون فيها لله تعالى، عارفون مؤمنون بما ادَّخر لهم من الثواب.

ولقد قال إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين: «وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة».

وكان يقول صلى الله عليه وسلم: «يا بلال أَرِحْنا بالصلاة».

فمن أراد أن يدخل الجنة فعليه أن يقتحم عقبة التكاليف الشرعية ، فيأتمر بأوامر الله تعالى ، وينتهي عما نهاه الله تعالى عنه.

وأما النار فهي محفوفة ومحاطة بالشهوات المحرمة ، فمن وقع في الشهوات وانغمس فيها وقع في النار ، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات».

وفي رواية للشيخين ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حُجبت الجنة بالمكاره ، وحُجبت النار بالشهوات» كذا في (التيسير).

وروى الإمام البخاري ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «بينما أنا أسير في الجنة وإذا بنهر في الجنة حافتاه قِباب الدرِّ المجوَّف».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قلت: يا جبريل ما هذا؟.

قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك.

فإذا طينه ـ أو طيبه ـ مسك أذفر».

شك هُدبة ـ أي: أحد الرواة ، ذكره البخاري تحت عنوان بابٌ في الحوض وقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾.

خطاب الله تعالى لعباده المؤمنين يوم القيامة وتكليمهم بما فيه تكريمهم

قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم، ورسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمعنى: أَنَّ الأحِبَّاء في الدنيا يصير بعضهم لبعض أعداء يوم القيامة، إلا المتقين وهم: المتحابون في الله تعالى، على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فهم الممتثلون لأوامر الله تعالى، والمنتهون عما نهى الله تعالى عنه، فهؤلاء المتحابون في الله تعالى تبقىٰ محبتهم بينهم يوم القيامة، بل هي تنمو وتزيد، وتنفعهم، وتقيهم الكربات والشدائد يوم القيامة، وتحفظهم من أهوال الموقف.

روى مسلم ومالك، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي: اليوم أُظلهم في ظلي يوم لا ظلَّ إلا ظلي» كذا في (التيسير).

فالمتحابون هم في ظل عرش الله تعالى يوم القيامة ، آمنون من كل سوء ومكروه.

روى الإمام أحمد بإسناد جيد ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله عز وجل: المتحابُّون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي» كذا في (الترغيب).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أحبهما إلى الله عز وجل أشدهما حُباً لصاحبه»[1].

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «قال الله عز وجل: قد حقَّت محبتي للذين يتحابُّون من أجلي ، وقد حقَّت محبتي للذين يتزاورون ـ أي: يزور بعضهم بعضاً ـ من أجلي ، وقد حقَّت محبتي للذين يتباذلون مِنْ أجلي ، وقد حقَّت محبتي للذين يتصادقون من أجلي»[2].

فانظر يا أخي المؤمن في فضل التحابب في الله تعالى ، فإنّ الله تعالى قد أوجب محبته للمتحابين في الله تعالى ، وأيُّ فضل أعظم من هذا؟!!

---

(١) رواه الطبراني ، وأبو يعلى ، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم كما في (الترغيب).

(٢) قال في (الترغيب): رواه أحمد ورواته ثقات ، والطبراني في الثلاثة واللفظ له ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

كما أنَّ التحابب في الله تعالى ينفع في الدنيا والآخرة:

روى ابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لو أَنَّ رجلين تحابا في الله تعالى أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذي أحببتَه فِيَّ»[1] .

وقوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة تكريم من الله تعالى لعباده المؤمنين ، وتشريف لهم ، وبشائر تجعلهم في سلام وأمان وسرور أبداً ، فهو سبحانه يُناديهم ويُضيفهم إليه ، فيقول: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ ويبشرهم بأنْ لا خوف عليهم مما يستقبلونه إلى الأبد ، ولا هم يحزنون على ما مضىٰ ، فنفىٰ عنهم الخوف أصلاً من المستقبل ، ونفى عنهم الحزن والأسىٰ مما مضى ، وفي هذا كمال الأمان ، وتمام النعيم والإحسان ، فهم في سرور دائم ، وفرح مستمر أبداً.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ في هذه الآية الكريمة يصفهم سبحانه بكمال الإيمان القلبي الاعتقادي ، الذي طابت وحيِيَتْ به قلوبهم واستنارت به أسماعهم وأبصارهم ، ويصفهم بكمال الإسلام العملي والقولي ، الذي طابت به ذواتهم فقيل لهم : ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ فطابت كل ذرة فيهم ، فلم يبق فيهم ذرة من فساد أو خبث قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

روى مسلم وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال

---

(١) كذا في (تفسير) ابن كثير وغيره .

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرَّة من كبر».

فقال رجل: إنَّ الرجل يُحب أنْ يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة ـ أي: هل يُعدُّ ذلك من الكبر ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر: بَطَر[1] الحق، وغمص الناس» أي: احتقارهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ يشير إلى كمال إيمانهم بآيات الله تعالىٰ كلها، والعمل بمقتضاها، وبما جاءت به من الأوامر الإلٓهية، والبعد عما نهى الله تعالى، فهم مسلمون ـ أي: مستسلمون ومنقادون ـ يطبقون ما اشتملت عليه آيات الله تعالى تطبيقاً كاملاً صحيحاً، دون تلاعب ولا احتيال ولا مكر، بل عملوا بآيات الله تعالى بصدق وعزم وجدّ؛ دون هزل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ والمراد بأزواجهم نساؤهم المؤمنات، فالإضافة في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ للاختصاص التام، فيخرج من لم يؤمن منهن، ومعنى تُحبرون: تُسَرُّون سروراً كبيراً، يظهر حباره ـ أي: أثره من النضرة

(١) البطر هو المَرَح وعدم الشكر على نعم الله تعالىٰ.

والحسن ـ على وجوهكم ، كما قال تعالى : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ، فهو مشتق من الحبور أي : السرور ، يقال : حَبَرَه من باب نَصر إذا سرَّه سُروراً كاملاً .

أو المراد بقوله تعالى : ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي : تزينون[1] ، فهو مشتق من الحبر بفتح الحاء وكسرها وهو : الزينة وحسن الهيئة[2] .

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى في (تفسيره) : وقيل : أصله ـ أي : أصل ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ من التحبير وهو التحسين ، ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ يُحَسَّنُوْن ، يقال : فلان حَسَنُ الحِبْر والسِّبر إذا كان جميلاً حسنَ الهيئة ، ويقال أيضاً : فلان حَسَن الحَبْر والسَّبْر بالفتح وهذا كأنه مصدر قولك : حبرته حَبراً إذا حسَّنته . ا هـ .

ثم نقل رحمه الله تعالى عن يحيى بن أبي كثير أنه قال : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال : السماع في الجنة ، قال : وقاله الأوزاعي .

وقال ـ أي : الأوزاعي ـ أيضاً : إذا أخذ أهل الجنة في السماع ـ أي : الغِناء بالتسبيح والتقديس ـ لم تبق شجرة في الجنة إلا وردَّدت الغناء بالتسبيح والتقديس . ا هـ .

ثم قال القرطبي : وهذا كله صادر عن النعيم والسرور والإكرام ، فلا تعارض بين تلك الأقوال ـ أي : حول قوله تعالى : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ا هـ .

فالتحبير قد يطلق على التحسين ، ومنه تحبير الصوت ـ أي :

---

(١) تزيّن وازَّين بمعنى واحد .

(٢) انظر تفسير (روح المعاني) .

تحسينه ـ وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لو رأيتني البارحة ـ يخاطب أبا موسىٰ ـ وأنا أستمع لقراءتك؟ لقد أُعطيتَ مِزماراً مِن مزامير آل داود» رواه الشيخان والترمذي، قال في (التيسير): وزاد في رواية البرقاني عن مسلم قال أبو موسى: (لو علمتُ والله يا رسول الله أنك تستمع لقراءتي لَحَبَّرْتُه ـ أي: صوتي ـ لك تحبيراً) أي: لحسنته لك على وجه أبلغ.

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الصِّحاف جمع صحفة، وهي: إنـاء الطعام الواسع، قال بعض علماء اللغة العربية: أعظم أواني الأكل: الجفنة، ثم القصعة، ثم الصحفة، ثم الكيلة. اهـ.

والأكواب جمع كوب وهو: كوز لا عُروة له.

وقد جاء في كثرة الصحاف في الجنة عدة أحاديث نبوية، وأنها مليئة بأنواع الأطعمة اللذيذة، وكل صحفة منها فيها طعام غير الطعام الذي في الأخرى.

جاء في الحديث، عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أسفل أهل الجنة درجة ـ أي: أدناهم درجة ـ لَمَن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم، بيد كل واحد صحفتان: واحدة من ذهب، والأخرى من فضة، في كل واحدة لَوْنٌ ليس في الأخرى مثله، يأكل من آخرها مثلما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذَّة مثل الذي يجد لأولها، ثم يكون ذلك كرشح المسك الأذفر، لا يبولون،

ولا يتغوَّطون ، ولا يمتخطون ، إخواناً على سرر متقابلين»[1] .

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ .

فيها ما تشتهيه الأنفس من أنواع الملاذِّ ، وتقرُّ الأعين ـ أي: تستلذ وتقر الأعين بمشاهدته والنظر إليه .

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنك ستنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويّاً»[2] .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله إن الولد من قرَّة العين وتمام السرور ، فهل يولد لأهل الجنة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المؤمن إذا اشتهىٰ الولد في الجنة كان حمله ووضعه في ساعة كما يشتهي»[3] .

قال السيد الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، ونفعنا الله تعالى به ، وبأهل البيت أجمعين قال: شتَّان بين ما تشتهيه الأنفس ، وبين ما تلذ الأعين ، لأنَّ جميع ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذ الأعين كأصبع تُغمس في البحر ، لأن شهوات الجنة

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) بسند رجاله ثقات ، ورواه ابن المبارك ، وابن أبي الدنيا كما في (الدر المنثور) وفي (روح المعاني) وغيرهما .

(٢) رواه البيهقي ، والبزار ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر كما في (الدر المنثور) .

(٣) رواه الإمام أحمد ، والدارمي ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، والبيهقي ، وغيرهم كما في (الدر المنثور) .

لها حدٌّ ونهاية[1]؛ لأنها مخلوقة ، ولا تلذ الأعين في الدار الباقية إلاَّ بالنظر إلى الباقي جل وعزَّ؛ ولا حدَّ لذلك ولا نهاية. ا هـ (روح المعاني).

كرر عليَّ حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة يثني الله تعالى على أهل الجنة بحسن سعيهم ، وصدق عملهم الذي قدموه ونالوا به دخول الجنة ، والتمكن فيها ، والخلود الأبدي.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هي باء السببية ، فإن دخول الجنة لا يُنال إلا بفضل الله تعالى ، ومغفرته ورحمته ، فأعمال أهل الجنة التي عملوها هي سبب لفضل الله تعالى عليهم بدخول الجنة ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ جعلنا الله تعالى منهم.

روى الإمام البخاري في (صحيحه) عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سَدِّدُوا وقاربوا ، وأبشروا ، فإنه لا يُدخل أحداً الجنة عملُـهُ».

---

(١) أي: أفرادها ، وكل واحدة منها ، ولكن نوعها وجملتها فهي باقية لا تنقطع أبداً ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾.

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلاَّ أَنْ يتغمَّدني الله بمغفرته ورحمته».

ورَوىٰ أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن يُنجِّي أحداً منكم عمله».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أَنا إلا أن يتغمَّدني الله برحمة، سَدِّدوا وقاربوا، واغدوا وَرُوْحوا، وشيئاً من الدُّلجة، والقَصْدَ القَصْدَ تبلغوا».

والمعنى: الزموا القصد ـ أي: التوسط في الأمر ـ تبلغوا المقصود، وهو فضل الله تعالى ورحمته.

ورواه مسلم بلفظ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لن يُدخل أحداً منكم عمله الجنة».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه بفضل ورحمة».

وفي رواية له أيضاً: «برحمة منه وفضل».

وفي رواية لمسلم أيضاً « إلا أن يتغمدني الله منه بمغفرةٍ ورحمة».

وروى مسلم أيضاً، عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، فإنه لن يُدخل الجنة أحداً عملهُ».

قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ولا أنا إلا أن يتغمَّدني الله منه

برحمة ، واعلموا أَنَّ أحب العمل إلى الله تعالى أدومُه وإن قلَّ» .

وروى البخاري ، والنسائي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّ هذا الدين يسر ، ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ، فسَدِّدُوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والرَّوحة؛ وشيء من الدُّلجة» كذا في (جامع الأصول) ثم شرح ذلك فقال :

الغُدوة : الخروج بُكرة ـ أي : أول النهار .

والرَّوحة : الرواح ـ أي : العود عشياً .

والمراد : اعملوا أطراف النهار وقتاً وقتاً .

قال : والدُّلجة : سير الليل ، والمراد به العمل في الليل ـ أي : العبادة وقيام الليل ـ .

وشيئاً من الدلجة : إشارة إلى تقليله .

قال : والقصْد[1] : العدل في الفعل والقول ، والوسط بين الطرفين اهـ أي : لا إفراط ولا تفريط .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : الغدوة سير أول النهار ، والروحة سير آخر النهار ، والدلجة سير آخر الليل ، وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناه : استعينوا على طاعة الله تعالى بالأعمال في وقت نشاطكم ، وفراغ قلوبكم؛ تستلذُّون العبادة ولا تسأمون ، وتبلغون مقصودكم ، كما أَنَّ المسافر الحازم يسير في هذه الأوقات ،

---

(١) وفي بعض الروايات : «والقصد القصد تبلغوا» والمعنى كما تقدم .

ويستريح هو ودابته في غيرها ، فيصل المقصود بغير تعب ؛ والله أعلم. ا هـ.

وروى الإمام أحمد ، عن أنس رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق» أي: ادخلوا فيه برفق.

وجاء في رواية البيهقي وغيره ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقىٰ».

والمنبتُّ هو: المنقطع ، وهو: الراكب الذي حَمَلَ دابته على الإسراع فوق طاقتها؛ رجاء الوصول لمقصوده ، فإذا بدابته أعيت وانقطعتْ عن متابعة السير ، فلا هو قطع مسافة الأرض ، ولا هو أبقى ظهر دابته يُنتفع بها ويتابع سيره.

فكذلك من تكلَّف من العبادة ما هو فوق طاقته ، فإنه ينتهي أمره إلى القطيعة والترك ، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يُحذر من المشادة في الدين.

قال العلامة ابن المنير: وليس المراد مَنْع طلب الكمال في العبادة ، فإنَّه من الأمور المحمودة ، بل المراد منع الإفراط المؤدي إلى الملال ، أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل ، أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله ، ويغالب النوم ، إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة ، أو إلى أن خرج وقت الصلاة المختار ، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة. ا هـ.

قول الله تعالى

﴿ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴾

هذه آخر آية من سورة الدهر التي نحن حول تفسيرها ، وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي: في جنته وهو المراد هنا والله أعلم ، كما تقدمت الأدلة على ذلك ، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ فبعد ما ذكر حال المؤمنين ومآلهم ، وهو الدخول في رحمته ـ أي: جنته ـ بعد ذلك ذكر مآل الظالمين ـ أي: الكافرين ـ وأنه أعد لهم عذاباً أليماً ، وهو عذاب جهنم الأليم على وجه التأبيد.

والكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الأول: أن المراد هنا بالظالمين الكفار بأنواعهم ، واختلاف ألوان كفرهم ، وقد جاء في كثير من آيات القرآن الكريم ذكر الظالمين ويريد بهم الكفار:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كما في سورة البقرة.

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فذكر الظالمين وإضلاله لهم بعد ما ذكر المؤمنين وتثبيته لهم ـ فأراد بالظالمين الكافرين.

جاء في الحديث ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «المسلم إذا سُئل في

القبر: يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ رسول الله ، فذلك قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾» الآية رواه الشيخان ، وأصحاب السنن ، كما في (التيسير) و(الدر المنثور).

فالله تعالى هو يثبّت الذين آمنوا ـ أي: إيماناً صادقاً لا منافقاً ـ بالقول الثابت وهو: لاإلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، في الحياة الدنيا بأن يحفظهم من الزيغ والفتن ، فيحفظ عليهم إيمانهم في قلوبهم من الزيغ ، ومن أن يفتنوا فيُردُّوا على أعقابهم ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ .

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي: حين يُسأل في القبر ، وفيما وراء ذلك .

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

واعلم أَنَّ القبر هو أول منزل من منازل الآخرة ، كما روى الترمذي وحسنه ، عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «القبر أوَّل منزل من منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه فما بعده أيسر ، وإن لَمْ ينج منه فما بعده أشدُّ منه».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما رأيت منظراً قطُّ إلا والقبر أفظع منه» الحديث وقد تقدم.

فقوله تعالى: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المراد بهم الكفار ،

فكثيراً ما يُذكر الظالمون في القرآن الكريم ويراد بهم الكفار على اختلاف أنواع كفرهم:

قال الله تعالى: ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ الآيات.

وقال الله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وإنما وصف الله تعالى الكفار بأنهم ظالمون لأنهم بكفرهم سَبَّبُوا لأنفسهم عذاب الله تعالى، العذاب الأليم والعظيم، والشديد والمهين، على وجه خالدين في جهنم أبداً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي: الظالمين لأنفسهم، فإنهم سبَّبوا لأنفسهم هذا العذاب الأبدي، فأيّ ظلم أعظم من ذلك؟!!.

قال الإمام البخاري في (صحيحه): باب ظلم دون ظلم.

ثم أسند إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (لما نزلتْ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ

﴿ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾) هذه رواية البخاري في كتاب الإيمان ، ورواه أيضاً في كتاب التفسير بلفظ :

عن عبد الله رضي الله عنه ـ يعني ابن مسعود ـ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقالوا : أيُّنا لم يَلبس إيمانه بظلم؟ ـ أي : بارتكاب ذنب ـ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنه ليس بذاك ـ أي : ليس المراد بذلك عامَّة الذنوب ـ ألا تسمع[1] إلى قول لقمان لابنه : ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾»[2] أي : بل المراد في الآية أعظم أنواع الظلم وهو : الشرك ، فإنَّه أعظم أنواع الذنوب التي يظلم بها العبد نفسه ، فإنه يُلقى به في نار جهنم خالداً فيها أبداً .

وإنما فهم الصحابة عموم أنواع ظلم الإنسان لنفسه الشِّرك وما دونه من الذنوب لأن كلمة ظلم نكرة ، وقد جاءت في سياق النفي وهو قوله تعالى : ﴿وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ ففهموا مِن ذلك عموم الظلم الذي يتناول الشرك وسائر الذنوب ، فَبَيَّن لهم صاحب البيان للقرآن أن العموم هنا غير مراد ، بل هو مِن العامِّ الذي أُريد به الخاص ، فالمراد بالظلم أعظم أنواعه وهو الشرك .

---

(١) وجاء في رواية في غير كتاب التفسير : «ألم تسمعوا ما قال لابنه» .

(٢) قال في (فتح الباري) : وظاهر هذا أنَّ الآية التي في لقمان كانت معلومة عندهم ، ولذلك نبههم عليها صلى الله عليه وآله وسلم ، قال : ويحتمل أنَّ نزولها وقع في الحال ، فتلاها عليهم ، ثم نبههم صلى الله عليه وآله وسلم فتلتئم ـ أي : تتفق الروايتان المتقدمتان .

الثاني: هذا البيان وغيره مما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم حول القرآن الكريم داخل في قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية، فلا يجوز فصل السنة ـ أي: أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم عن القرآن[1]، فإنها بيان له، وإن الله تعالىٰ قد تكفَّل بحفظ كتابه العزيز، كما أخبرنا عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ أي: من التبديل والتغيير والزيادة فيه والنقص، فلما تكفلِ سبحانه بحفظ كتابه دخل في ذلك لُزوماً حفظ ما هو بيان لكتابه؛ ألاَ وهو السنة ـ أي: أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم بأنواعها: القولية والعملية وما هنالك، فإنها محفوظة مَهما امتدَّت العصور وتوالت الدهور، لأنها بيان للقرآن، فإنَّه إذا ضاع البيان ضاع المبيَّن، فإنه حينئذٍ لا يُعرف المراد من القرآن الكريم، فلا يعرف إذاً المراد مِن أقيموا الصلاة، ولا كيفيتها، ولا عددها، ولا أوقاتها، ولا تُعرف مقادير الزكاة، ولا يعرف إذاً معنى الصيام، وعن أي شيء يكون الصيام، ولا ما يفسد الصيام، ولا يعرف إذاً المراد بالحج، ولا مناسك الحج، ولا ما هنالك مِنْ سائر الأحكام، وبيان الحلال والحرام، وبيان حقائق التوحيد إلى ما وراء ذلك...

ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقرن بين الكتاب والسنة ويوصي بالتمسك بهما، ويبيِّن أنهما متلازمان، فكان يقول في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَّا بعدُ: فإن أصدق الحديث

---

(١) انظر (فتح الباري) و(إرشاد الساري).

كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد» صلى الله عليه وآله وسلم ـ الحديث كما تقدم .

ويوصي بهما وبين ملازمتهما ، وأنهما باقيان محفوظان أبداً ، حجةً على العباد إلى يوم المعاد .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ الآية .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «تركت فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسّكتم بهما : كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» رواه مالك في (الموطأ) .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم قد بين القرآن الكريم كما بينه الله تعالى له ، قال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أي : أن نبينه لك ثم أنتَ تُبينهُ للناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية .

فالبيان المحمدي صلى الله عليه وآله وسلم وهو السنة والقرآن : لا يفترقان أبداً والحمد لله رب العالمين .

الوجه الثالث : ظلم الإنسان لنفسه هو متفاوت ، بعضه أشدُّ من بعض ، فإنَّ أعظمه وأقبحه وأشده هو الشرك كما تقدم في الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

أَنصَـارٍ﴾ فجزاؤه العذاب الأليم الأبدي.

وهناك ظلم العبد لنفسه، بارتكاب الذنوب والمعاصي: ـ أي: الكبائر القولية والعملية.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

فأراد بالظالمين هنا مرتكبي الكبائر، فإنهم بارتكابهم الكبائر وعدم توبتهم منها عَرَّضوا أنفسهم للعذاب، وسبَّبوا لأنفسهم دخول النار وعذابها، على حسب معاصيهم؛ مدة مؤقتة، ثم يخرجون، فهم يدخلون جهنم إنْ لم تَنلهم الشفاعة قبل دخولهم؛ فيعذبون مُدة مؤقتة، ثم يخرجون بشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم على أصناف متعددة.

روى الإمام مسلم، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمَّا أهل النار الذين هم أهلها ـ أي: الكفار بأنواع كفرهم ـ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم، فأماتتهم إماتةً، حتى إذا كانوا فحماً أُذِنَ في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر ضَبائرَ ـ أي: جماعات متفرقة ـ فبثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء ـ أي: ماء الحياة من أنهار الجنة ـ فينبتون نبات الحبة في حميل السيل» أي: تنموا وتربوا أجسامهم بأسرع ما يكون.

وقد شرحت هذا الحديث مفصلاً في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه.

وهناك ظلم العبد لنفسه بارتكاب الصغائر:

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ﴾ ـ أي: كبيرة ـ ﴿ أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ـ أي: بارتكاب الصغائر ـ ﴿ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾.

جاء في الحديث، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إيَّاكم ومُحقَّرات الذنوب ـ أي صغائر الذنوب، فإنَّ الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، وتكون سبباً في ارتكاب كبائر الذنوب ـ فإنما مثل محقَّرات الذنوب: كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاءَ ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به ـ أي: خبزوا ـ خبزهم وإن محقَّرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهْلِكْنَهُ، كرجل كان بأرض فلاة، فحضر صنيعَ القوم، فجعل الرجل يجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود ـ أي: من

---

(١) رمز في (الجامع الصغير) إلى رواته: الإمام أحمد، والطبراني، والبيهقي، والضياء، ورمز لصحته.

الحطب ـ حتى جمعوا من ذلك سَواداً ، وأججوا ـ أسعروا ـ ناراً ، فأنضجوا ما فيها»[١] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : تَتَابعُ الصغائر عظيم التأثير في سواد القلب ، وهو كتتابع قطرات الماء على الحجر فإنه يُحدث فيه حفرة لا محالة؛ مَعَ لين الماء وصلابة الحجر . اهـ[٢] .

فالإصرار على الذنوب ، والإقامة عليها ، وعدم التوبة منها ، والاستغفار منها في ذلك خطر كبير ، وإثم عظيم ، فإن الإصرار على الصغائر هو من الكبائر ، وهو طريق موصل إلى الوقوع في الكبائر ، وإن الإصرار على الكبائر هو أمر خطير ، قد يوصل إلى الكفر ، وذلك لأَنَّ الإصرار على المعصية يؤدي إلى الاستهانة بفعلها ، والتهاون في عملها ، وعدم المبالاة بأنها حرام ، حتى إذا استمرَّ عليها ، وأدمن على فعلها ، استباحها واستحلَّها واعتقد أَنَّها ليست بحرام ، وبذلك يُعتبر كافراً ، خارجاً عن دين الإسلام .

فإنَّ مَنِ استحلَّ حراماً قطعياً معلوماً من الدين بالضرورة بَيْن الخاص والعام فإنَّه بذلك يكون كافراً ، وذلك : كاستحلال الزنا ، والربا ، والخمر ، والسرقة ، وقتل النفس ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين؛ إلى ما هنالك من الكبائر القطعية المعلومة من الدين بالضرورة .

---

(١) رمز في (الجامع الصغير) إلى رواته : الإمام أحمد ، والطبراني ، ورمز لحسنه ، اهـ وقال ابن حجر : سنده حسن .

(٢) هذا وإنَّ الحبل اللين ليؤثر وينحت الحجر الصلب الموضوع على فم البئر؛ كما هو معلوم ـ فليعتبر العاقل .

جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ارحموا تُرحموا، واغفروا يُغفر لَكم، ويل لأقماع القول، ويل للمُصرِّين الذين يُصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون»[1] أي: يعلمون أَنَّ ما فعلوه هو معصية تُغضب رب العالمين، وأن الإصرار هو ذنب عظيم، وَأَنَّه سبحانه سيعاقب على الذنوب ما لم يَتُب صاحبها منها، وأَنَّه قد يحال بينه وبين التوبة؛ بأن يباغته الموت فجأة والعياذ بالله تعالى.

فالبدار البدار، والإسراع كل الإسراع إلى التوبة من الذنوب كلها، وكثرة الاستغفار منها.

روى مسلم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله تعالى يَقبل توبة العبد ما لم يُغرغر»[2].

الوجه الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾.

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد، والبخاري في (الأدب المفرد) والبيهقي.

(٢) رواه الترمذي وصححه.

تقدم أن المراد بالظالمين هنا الكافرون قال تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ﴾ ـ أي: الكافرين ـ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا(١) وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ(٢) يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا﴾ أي: جهنم وما فيها من العذاب الأليم، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ وقوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ في هذا كله دليل أنها معدَّة مخلوقة، كما تقدم في الحديث وفيه: «لَمَّا خلق الله النار قال لجبريل: اذهب فانظر إليها» الحديث.

وقد بين سبحانه أنَّ عذاب جهنم أليم ـ والعياذ بالله تعالى ـ كما بين سبحانه أنَّ عذابها عظيم ومُهين، جاء ذلك في كثير من الآيات الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ

---

(١) روى الترمذي، والإمام أحمد، عن أبي سعيدالخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «لِسُرادق النار أربعة جُدُر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة».

(٢) وروى الترمذي، وأحمد، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ماء كالمهل» قال: «كعكر الزيت، فإذا قرّبه إليه سقطت فروة وجهه فيه».

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ .

شدة نار جهنم وحَرُّها الشديد
أعاذنا الله تعالى منها

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» .

قالوا : والله إن كانت ـ أي : إنه كانت ـ لكافية يا رسول الله .

قال : «فإنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلها مثل حرها»[(١)] .

وروى الترمذي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، لكل جزء منها حرها» .

شدة سوادها أعاذنا الله تعالى منها

روى الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أُوقد على النار ألفُ سنة

---

(١) قال في (جامع الأصول) : أخرجه البخاري ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وليس عند الموطأ «كلها مثل حرها» .

حتى احمرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أُوقِد عليها ألف سنة حتى اسودَّت ، فهي سوداء مظلمة»[١]

شدة بُعد قعر جهنم أعاذنا الله تعالى منها

روى مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ سَمع وَجْبةً[٢] .

فقال: صلى الله عليه وآله وسلم: «أتدرون ما هذا»؟

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين سنة فهو يهوي في النار ؛ الآن حيث انتهى إلى قعرها».

وزاد في رواية: «فسمعتم وجبتها»[٣] .

شدَّة اشتعالها وتأجّجها أعاذنا الله تعالى منها

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: رَبِّ أكل بعضي بعضاً ، فأذن لها بنَفَسين: نَفَس في الشتاء ، ونفس في الصيف.

---

(١) كذا في (جامع الأصول).

(٢) الوجبة: صوت وَقْع الشيء الثقيل.

(٣) كذا في (جامع الأصول).

فهو أشدُّ ـ أي: ذلك النفس ـ ما تجدون من الحرِّ ، وأشد ما تجدون من الزمهرير».

وجاء في رواية للبخاري: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا اشتدَّ الحرُّ فأبردوا بالصلاة ، فإنَّ شدة الحرِّ مِنْ فيح جهنم ، اشتكت النار إلى ربها ، فأذن لها في كل عام بنفسين: نفسٍ في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فهو أشد ما تجدون من الحر ، وأشدُّ ما تجدون من الزمهرير» أي: شدة البرد.

ففي جهنم أنواع من العذاب: فيها شدة الحر الأليم ، وفيها أيضاً شدَّة البرد ، وإنَّ أشدَّ ما يأتي على وجه الأرض مِنَ الحر فهو من ذلك النَّفَس الجهنمي ، وإنَّ أشد ما يأتي على وجه الأرض من البرد فهو من ذلك النفس الجهنمي ـ ونعوذ بالله العظيم من عذاب جهنم.

عِظَمُ جسد الكافر في جهنم وقبحه

يُمدُّ للكفار في أجسادهم إذا دخلو جهنم؛ ليذوقوا العذابَ كلٌّ منهم على حسب كفره.

روى مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ضِرس الكافر ـ أو «ناب الكافر» ـ مثل أُحُد ، وغِلظ جلده مسيرة ثلاث» كذا في (جامع الأصول).

قال: وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ضرس الكافر يوم القيامة مثل أُحُد ، وفخذه مثل

البيضاء ، ومقعده في النار مسيرة ثلاث ؛ مثل الربَذَة» يعني : ما بينها وبين المدينة .

والبيضاء : جبل ، وقيل : مدينة من مدائن المغرب اهـ (جامع الأصول) .

والربذة : موضع قريب من ذاتِ عرق على ثلاث مراحل مِنَ المدينة كما في (فيض القدير) . اهـ .

وروىٰ الترمذي ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إنَّ الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين ، يتوطَّؤه الناس» .

تفاوت عذاب الكفار في جهنم
أعاذنا الله تعالى منها

روى مسلم ، عن جندب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إنَّ منهم ـ أي : الكفار في جهنم ـ مَنْ تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ[١] ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»[٢] .

وفي رواية لمسلم أيضاً : «إنَّ منهم مَنْ تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه» .

---

(١) الحجزة هي : موضع شد الإزار .
(٢) الترقوة : العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة؛ لرجل يوضع في أَخمص قدميه حَجَرَتان يغلي منهما دماغه».

وفي رواية له: «نعلان وشِراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل[1]، ما يرى أحداً أشدَّ منه عذاباً ـ وإنه لأهونهم عذاباً»[2] رواه الشيخان.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ أدنىٰ أهل النار عذاباً الذي له نعلان من نار، يغلي منهما دماغه» قال في (الترهيب): رواه الطبراني بإسناد صحيح، وابن حبان في (صحيحه).

ما أشدَّ عذاب النار؟
وما أعظم نعيم الجنة؟

إن أنعم الكفار في الدنيا، وأكثرهم تنعماً فيها لَيُغمس في النار غمسة فينسى كل نعيم مَرَّ عليه في الدنيا، وإنَّ أشد أهل الجنة بُؤساً وتعباً في الدنيا ليُغمس في الجنة غمسة فينسى كل بؤس مرَّ عليه في الدنيا.

روى الإمام مسلم وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: قال

---

(١) المرجل هو: الإناء يسخن فيه الماء.
(٢) كذا في (جامع الأصول).

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيتَ نعيماً قطُّ، هل مرَّ بك خير قطُّ؟ ـ أي: حين كان في الدنيا ـ.

فيقول: لا والله يا ربِّ.

ويُؤتى بأشَدِّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبَغ في الجنة صَبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قطُّ؟ هل مَرَّ بك من شدة قط؟ ـ أي: حين كان في الدنيا ـ.

فيقول: لا والله ياربِّ ما مرَّ بي بؤس قطُّ، ولا رأيتُ شدة» كذا في (التيسير).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا كلها أكنتَ مفتدياً بها؟

فيقول: نعم.

فيقول الله تعالىٰ: قد أردتُ منك ما هو أيسر من هذا وأنتَ في صلب آدم: أَنْ لا تُشرك بي شيئاً ولا أُدخلك النار وأدخلك الجنة فأبيت إلا الشرك» أخرجه الشيخان كما في (التيسير).

ويشير في هذا الحديث الشريف إلى أخذ الله تعالى العهد على بني آدم وهم في صلب آدم، فاستخرجهم وجمعهم كلهم؛ وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ ـ أي: أنت ربنا، ونحن عبادك ـ كما أخبرنا الله تعالى عن ذلك في القرآن الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ .

روى الإمام أحمد بسنده ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إنَّ الله تبارك وتعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان ـ جبل قرب عرفة ـ يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرها بين يديـه[1] ، ثم كلَّمهم قُبُلاً ـ أي : مقابلة ـ قال : ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ الآيات قال : (فجمعهم له يومئذ جمعاً ـ أي : جمع لآدم جميع ذريته ـ ما هو كائن منه ـ أي : يولد منه ـ إلى يوم القيامة ، فجعلهم في صورهم ، ثم استنطقهم ، فتكلَّموا ، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الآية .

ثم قال لهم سبحانه : فإني أشهد عليكم السماوات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا .

اعلموا أنه لا إله غيري ، ولا ربَّ غيري ، ولا تشركوا بي

---

(١) بين يدي آدم كما سيأتي عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

شيئاً ، وإني سأرسل إليكم رسلاً لينذروكم عهدي وميثاقي ، وأُنزل عليكم كتبي .

قالوا : نشهد أنك ربُّنا وإلّهنا لا ربَّ لنا غيرك ، ولا إلّه لنا غيرك فأقرُّوا له يومئذ بالطاعة)[1] .

وقد فَصَّلْت الكلام على عالم الذرِّ ، وأخذه سبحانه الميثاق الأول على بني آدم ، وبسطت الأدلة في كتاب (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه .

ويرحم الله تعالى القائل :

نقِّل فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّل

كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوَّل منزل

فالحبيب الأول هو الله ربُّ العالمين ، الذي تجلّىٰ على عباده كلهم يوم قال لهم : ألست بربكم؟ فقالوا : بلى ـ أي : أنتَ ربنا ، فأقرُّوا له ، واعترفوا له بالألوهية ، وأحبُّوه ، وأخذ عليهم العهد والميثاق الأول[2] ، وذلك في عالم الذَّرِّ بعد ما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض .

وإنَّ أول منزل نزلوه هو الجنة ، فإنّ الله تعالى لما أسكن آدم

---

(١) وقد جاء هذا الحديث في (مسند) الإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله عن أبيه ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن مردويه ، وغيرهم .

(٢) وقد نقل ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ﴾ ـ أي : ربكم ـ ﴿مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سورة الحديد قال مجاهد : هو الميثاق الأول الذي أخذه الله تعالى عليهم . ا هـ .

الجنة كما قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فإنّ ذريته كلهم كانوا في صلبه.

فالواجب على العاقل أن يسعى إلى الرجوع لوطنه الأصلي، وذلك باتباع شريعة الله تعالى، والائتمار بأوامره، والانتهاء عما نهى، فإنَّ الله تعالى تعهَّد منذ أهبط البشرية إلى الأرض تعهَّدهم بالهدي الإلّهي، والبيان لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كما في سورة البقرة.

هذا وإن أول من قال: بلى ـ أي: أنت ربنا ـ أول من قال ذلك وأجاب بها هو: سيد العالمين، وإمام الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين، في كل وقت وحين، كما ذكرت ذلك في جملة فضائله صلى الله عليه وآله وسلم، واختصاصه بأوّليات المراتب العالية، ذكرت ذلك مع الأدلة في كتاب: (شهادة لا إلّه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) فارجع إليه.

روى الإمام أحمد، والنسائي، وغيرهما[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه ـ أي: آدم ـ كالذرِّ ثم كلمهم قُبُلاً

---

(١) وهم كما في (الدر المنثور) وغيره: ابن جرير، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في (الأسمات والصفات) اهـ.

ـ أي: مقابلة ـ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

وكان أول من قال بلى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم.

جاء في جزء مِن أمالي أبي سهل ابن القطان، عن سهل بن صالح الهمداني قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن أمير المؤمنين رضي الله عنه وكرم الله وجهه: كيف صار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخر مَنْ بُعث؟

فقال رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى لما أخذ الميثاق من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ﴾ كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل مَنْ قال: بلى ـ أي: أنت ربنا ـ ولذلك صار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدم الأنبياء وهو آخِر مَن بُعث. اهـ.

تذكرة

قد دلت الأحاديث النبوية المتقدمة وغيرها، على أنَّ وجود الذرَّات التي خُلق منها بنو آدم قد جمعها الله تعالى في صلب آدم، ثم نقلها في أصلاب ذريته، فتنقلت من الأصلاب إلى الأرحام، وهكذا دَواليكَ، وهذا الوجود الصلبي له اعتباره وأحكامه، فقد استخرج الله تعالى تلك الذراري من صلب آدم فَمَنْ بَعْدَهُ، وأخذ عليهم العهد والميثاق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ

ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الآية أي: أنت ربنا.

وقد امتَنَّ الله تعالى على هذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم بأن نجاهم من الطوفان العام الذي سلطه على الذين كفروا بنوح عليه السلام، فقال تعالى مخاطباً لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ ـ أي: سفينة نوح عليه السلام ـ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: علا وارتفع وجاوز مَدَّهُ المعتاد، حتى أنه علا على أعلى جبل خمس عشرة ذراعاً، وقال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه: طغىٰ على خُزَّانه من الملائكة غضباً لربه، فلم يقدروا على حبسه. اهـ.

نعم والكل بأمره سبحانه وتعالى يأتمرون، وبقدرته يتحركون.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: حملنا آباءكم إذْ ذاك وأنتم في أصلابهم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: السفينة الجارية بعناية الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ والمعنى: أَنَّ السفينة ذات ألواح ودسُر محدودة، ليس فيها مقاومة لقوة ماء الطوفان: النازل من السماء، والنابع من الأرض، ولكن السفينة سَلِمتْ وأهلها لأنها كما قال سبحانه: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ فهي وأهلها في حفظ الله تعالى وعنايته.

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نَـمْ فـالمخـاوف كلُّهـنَّ أمـان

وقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ تذكرون فيها عظمة قدرة الله تعالى، وسلطانه الأكبر الذي أنجى نوحاً عليه السلام وَمَنْ معه في

السفينة ، ونجاكم يا أمَّة هذا الرسول الأكرم ، والنبي المعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ونجّى السفينة من الدَّمار وملاطمة الأمواج لها ، كما قال سبحانه: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الآية ، فلولا أَنْ يحيطها سبحانه بحفظه وعنايته؛ لدمرتها الأمواج وَمَنْ فيها ، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ فكان ذلك آية دالة على عظمة قدرة الله تعالى ، وعزته وحكمته ، حيث أغرق الكفار من قوم نوح عليه السلام ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وهو يأتيهم بالبينات الساطعات ، والحجج القاطعات ، الدالة على وحدانية ربِّ الأرض والسماوات ، وجميع ما هنالك من المخلوقات .

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فنجىٰ سبحانه وتعالى المؤمنين ، وفي هذا بيان تكريم الله تعالى لعباده المؤمنين ، وإذلاله وعذابه للكافرين ، فإنهم ظالمون ، جحدوا وكذَّبوا بالحق بعد ما تبين لهم ، وظهر ظهوراً جلياً ، فعاندوا وعارضوا ، واستكبروا وكفروا ، وحقَّت كلمة العذاب على الكافرين ، فعذابهم حق لا ظلم فيه ولا جَوْر .

وقال الله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى عما قاله لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجوديّ ، وما في ذلك من السلام

والبركات عليه وعلى مَنْ معه مِن المؤمنين ، وعلى كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة .

روى ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وغيرهم ، عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: دخل في ذلك السلام والبركات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، ودخل في ذلك المتاع والعذاب الأليم كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة . ا هـ.

وفي هذه الآية الكريمة بشارة سارَّة لكل مؤمن ومؤمنة بالسلام عليه ؛ والبركات من الله تعالى الرحمن الرحيم والحمد لله تعالى على نعمة الإيمان والإسلام ، وأننا من أمة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وآله الكرام ، وعلينا معهم أجمعين ـ آمين .

وقوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال قتادة وغيره في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال : عقلتْ عن الله تعالى فانتفعتْ بما سمعتْ من كتاب الله تعالى . ا هـ.

وهذا شأن كل مؤمن صادق ، والمؤمنون في ذلك على مراتب متعددة ، بعضها أكمل من بعض:

روى سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر وغيرهم ، عن مكحول قال: لما نزلتْ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سألتُ ربي أن يجعلها أُذن عليّ» .

قال مكحول: فكان علي رضي الله عنه يقول: ما سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فنسيته[1] .

---

(١) انظر (الدر المنثور) وقد عزاه أيضاً إلى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

روى الطبراني ، وابن السكن وغيرهما ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما دخل المدينة مرجعه من غزوة تَبوك ، قال العباس بن عبد المطلب ـ عمُّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ يا رسول الله أتأذن لي أن أمتدحك؟

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : «قل ، لا يفضض الله فاك»[١] .

فقال العباس رضي الله عنه :

من قبلها طبتَ في الظلال وفي ... مُستودَعٍ حَيث يُخصَف الوَرَق[٢]

ثم هبطتَ البلاد[٣] لا بشر أنْـ ... ـتَ ولا مضغة ولا عَلَق

بل نطفة تركب السفين[٤] وقد ... أُلجمَ نَسْراً وأهلَه الغرقُ[٥]

تَنقَّلُ من صالِب[٦] إلى رحم ... إذا مَضى عالَمٌ بَدا طَبَق[٧]

---

(١) هذا دعاء للعباس بصيانه فمه عن كل خلَلَ وفساد : حساً ومعنى .

(٢) أي : من قبل الهبوط إلى الأرض : طبتَ في ظلال الجنة ، حيث كنت في صلب آدم ، وفي مستودع أي : الموضع الذي كان آدم وحواء به في الجنة ، وهو حيث ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ .

(٣) أي : نزلت إلى الأرض لما هبط إليها آدم عليه السلام ، وأنت في صلبه ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

(٤) المراد به سفينة نوح عليه السلام .

(٥) أي : وقد ألجم الغرق بسبب الطوفان نَسْراً وهو أحد أصنام قوم نوح ، كما أُلجم وأُغرق أهل الصنم الذين عبدوه .

(٦) أي : من صلب .

(٧) أي : كلما مضى عالم أنت فيه بواسطة مَنْ كنت في صلبه ، ظهر طبق ـ أي : عالم آخر تكون فيه ، بانتقالك من أصل لفرع ، فالطبق هو العالم ، والمراد به هنا القرن .

وردتَ نـار الخليـل مكتتمـاً[١] في صلبه أنْتَ كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهيمن مِنْ خِندفٍ علياءُ تحتها الـنُّـطُق[٢]
وأنت لما وُلدتَ أشرقت الأ رض وضـاءت بنـورك الأُفُـق
فنحن في ذلك الضياء وفي النو ر وسُبـل الـرشـاد نختـرق[٣]

---

(١) أي: مخفياً في صلبه عليهما الصلاة والسلام.

(٢) المراد بالبيت: الشرف، والمهيمن هو: الشاهد المحفوظ من الشين، والمعنىٰ: احتوىٰ شرفك العظيم يا رسول الله الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب.
خِنْدف بكسر الخاء والدال ـ وهو في الأصل المشي بهرولة، ثم جُعلَ علَماً على امرأة إلياس بن مضر، لما خرجت تهرول بين بنيها الثلاثة، ثـم ضُـرِب مثلاً للنسب العالي.
والـنُّـطُق جمع: نطاق، والمراد به هنا النواحي الواسعة والأوساط الشاسعة، والمراد بذلك رفعة شرفه صلى الله عليه وآله وسلم فوق كل شرف، كرفعة قمة الجبل العالي فوق النواحي والأوساط. ا هـ ملخصاً من (شرح المواهب اللدنية).

(٣) انظر هذه الأبيات اللامعة في (المواهب اللدنية وشرحها) و(مجمع الزوائد) وفي (تاريخ) الحافظ ابن كثير وغيرها.
وقال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في (الخصائص الكبرى): أخرج الحاكم، والطبراني، عن خريم بن أوس قال: هاجرتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مُنصرَفه من تبوك ـ أي: مرجعه من تبوك ـ فسمعت العباس رضي الله عنه يقول: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك.
فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل لا يَفْضُض الله فاك».
فقال:
من قبلها طبتَ في الظلال وفي مُسْتَودَعٍ حيث يُخصَف الورق
الأبيات كما تقدم.

قـول الله تـعـالـى

﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾

هذه آخر آية من سورة الإنسان ، يبين الله تعالى فيها جزاء كل إنسان بما عمل ، وأنَّ الإنسان المؤمن سوف ينتهي أمره إلى دخوله في رحمة الله تعالى ـ أي: جنته ـ وأن الظالمين ـ أي: الكفار ـ سوف ينتهي أمرهم إلى جهنم ، ويلقون العذاب الأليم.

فبعد ما ذكر سبحانه في أوّل السورة بدءَ خلق الإنسان وتكليفه، بَيَّن في آخر السورة ما ينتهي إليه من جزاءٍ له على عمله ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ﴾ ـ أي: المؤمنين ـ ﴿ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

جاء في الحديث ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ حتى ختمها ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون ، أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئطَّ ، ما فيها موضع قدم إلاَّ مَلك واضع جبهته ساجداً لله تعالىٰ ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذَّذتم بالنساء على

الفُرُش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجلَّ»[١] .

ورواية الترمذي كما في (التيسير) هي: «إني أرى ما لاترون ، وأسْمع ما لاتسمعون ، أطَّتِ[٢] السماء وحقّ لها أنْ تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم: لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات[٣] تجأرون[٤] إلى الله تعالى» .

قال أبو ذر: لوددتُ أني شجرةً تُعضد ـ أي: تقطع .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يَرى ما لا يرى غيره ، ويسمع ما لا يسمع غيره من أمور الدنيا وأمور الآخرة .

وهذا باب واسع جداً ، من جملة معجزاته صلى الله تعالى عليه وآله وسلم التي أعطاه الله تعالى إياها ، وقد ذكرت جملة موجزة حول سمعه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، وحول بصره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، في كتابي (حول شمائله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، والضياء في (المختارة) والحاكم وصححه واللفظ له كما في (الترغيب) و(روح المعاني) و(الدر المنثور) .

(٢) الأطيط: وهو صوت القتب والرحل ، ونحوهما ، ومعناه: أنَّ السماء من كثرة الملائكة العابدين فيها أثقلها حتى أطتْ ا هـ (الترغيب باختصار .

(٣) أي: الصحارىٰ .

(٤) الجؤار: الصياح ـ أي: تستغيثون ربكم .

الحميدة وخصاله المجيدة صلى الله عليه وآله وسلم) فارجع إليه.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: بعد أن قرأ سورة: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ قوله: «إني أرى ما لا ترون» الحديث يُفيد ذلك أنَّ الله تعالى أراه ما تقدم ذكره في السورة من الجنة وما فيها من النعيم، والنار وما فيها من العذاب.

نعم ـ وقد أراه الله تعالى ذلك في ليلة المعراج، وفي غيرها من المناسبات كما جاء ذلك في الأحاديث المتعددة:

ومن ذلك ما جاء في رواية مسلم لحديث المعراج وفي آخره قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم أُدخلتُ الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك» الجنابذ جمع جُنبذة وهي: القبة.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء لم أكن أُريته إلاَّ رأيته في مقامي هذا: حتى الجنة والنار، ولقد أُوحي إليَّ أنكم تُفتنون ـ أي: تمتحنون ـ في قبوركم» الحديث والمراد بذلك السؤال في القبر.

ومن ذلك ما جاء في الحديث، عن أنس رضي الله عنه قال: سألوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحفوه في المسألة ـ أي: أكثروا في السؤال ـ.

فصعد ذات يوم على المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنته لكم».

فلما سمعوا ذلك أرمُّوا ـ أي: أطرقوا ـ ورهبوا أَن يكون بين أمرٍ قد حضر.

قال أنس رضي الله عنه : فجعلتُ أنظر يميناً وشمالاً فإذا كلُّ رجل منهم لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي ، فأنشأ رجل كان إذا لاحى يُدعى إلى غير أبيه فقال يا رسول الله: مَنْ أبي؟ قال: «أبوك حُذافة».

فقال عمر رضي الله عنه: رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ـ نعوذ بالله من الفتن.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قطُّ ، إنه صُوِّرت لي الجنة والنار ، حتى رأيتهما دون الحائط».

أخرجه الشيخان ، والترمذي وزاد في روايته فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ الآية كذا في (التيسير).

ورواية مسلم لفظها كما في (صحيحه) هي: عن أنس رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج حين زاغت الشمس ـ أي: مالتْ عن كبد السماء ودخل وقت الظهر ـ فصلَّى لهم صلاة الظهر ، فلما سلَّم قام صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر ، فذكر الساعة ، وذكر أَنَّ قبلها أموراً عظاماً ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَحَبَّ أن يَسألني عن شيء فليسألني عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء ـ المراد بذلك العموم ـ إلاَّ أخبرتكم به ما دمتُ في مقامي هذا».

قال أنس رضي الله عنه ، فأكثر الناسُ البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأكثر رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم أن يقول: «سلوني».

فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله.

قال: «أبوك حذافة».

فلما أكثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أن يقول: «سلوني» برك عمر رضي الله عنه فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين قال عمر ذلك.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أولى[١]. والذي نفس محمد بيده لقد عُرضتْ عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرض هذا الحائط، فلم أَرَ كاليوم في الخير والشر».

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون» هذا يشمل أموراً كثيرة وكبيرة: منها ما يتعلق بالعوالم العلوية، ومنها ما يتعلق بالأمور الأرضية، ومنها ما يتعلق بالمغيبات: ما مضى منها، وما هو آت، ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا، ومنها ما يتعلق بأمور الآخرة، ومنها ما يتعلق بعالم الملائكة عليهم السلام، ومنها ما يتعلق بعالم الجن، ومنها ما يتعلق بعالم الأرواح، ومنها ما يتعلق بعالم الأشباح، ومنها

---

(١) قال الإمام النووي: أما لفظة: أولى فهي تهديد ووعيد، وقيل: كلمة تلهف، فعلى هذا يستعملها مَنْ نجىٰ من أمر عظيم، قال: والصحيح المشهور أنها للتهديد، ومعناها: قرب منكم ما تكرهونه. إلخ أي: قرب منهم لولا أنهم سكتوا.

ما يتعلق ومنها ومنها. . . . إلى جميع ما هنالك مما أراه الله تعالى ، وأسمعه إيّاه ، ولا يحيط علماً بذلك إلا الله تعالى الذي أكرمه وأعطاه ، ورفع مقامه على منْ سواه صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

فتدَّبر وتفكر أيها العاقل الفطِن في هذه الآية الكريمة ، وفي هذه الخِطابات الموجهة إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، الدالة على تخصيصه بذلك صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقول له سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

ويقول له سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ ويقول له سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

فتدبر ذلك وتفهم ، فإذا فهمت هِمْتَ في محبته صلى الله عليه وآله وسلم ، وحرصت كل الحرص على اتباعه صلى الله عليه وآله وسلم ، وتعظيمه وتوقيره ، والأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ﴾ ـ أي: عظموه ـ ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد جاء في الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: حديث حسن صحيح ،

رويناه في كتاب (الحجة) بإسناد صحيح . ا هـ.

ورواه الطبراني وغيره بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، ولا يزيع عنه».

رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم حوضه وهو قائم على المنبر

روى الشيخان ، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فصلَّىٰ على أهل أُحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنِّي فَرَطَ[1] لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي؛ ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها» أي: تتنافسوا على الدنيا وأموالها.

رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم مشارق الأرض ومغاربها

جاء في الحديث ، عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله زَوَىٰ لي ـ أي: جمع لي ـ الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإنَّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِيَ لي منها ، وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي

---

(١) الفَرَط هو السابق في السير إلى الماء ، والمراد: إني لكم سابق ، فإذا قدمتم عليَّ وجدتموني أنتظركم. ا هـ كما في (تيسير الوصول).

أن لا يُهلك أمتي بسنة ـ أي: قحط ـ عامَّة ، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم: فيستبيح بيضتهم ـ أي: جمهورهم ومعظمهم ـ.

وإن ربي تعالى قال: يا محمد إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُردُّ ، وإني أعطيتك لأمتك أني لا أهلكهم بسنة عامة ـ أي: قحط عام يعم جميع بلادهم ـ ولا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم: يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها ـ أي: أقطار الدنيا ـ حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً» رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي كما في (التيسير).

رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ وراءه كما يرى مَنْ أمامه

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً ثم انصرف فقال: «يا فلان ألا تحسن صلاتك ، ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يُصلي؟ فإنَّما يصلي لنفسه ، إني لأبصر مِنْ ورائي كما أُبصر منْ بين يديَّ».

رواه مسلم، والنسائي ، وابن خزيمة في (صحيحه) ولفظه قال:

صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الظهر ، فلما سلم نادى رجلاً كان في آخر الصفوف فقال: «يا فلان: ألا تتقي الله ؟ ألا تنظر كيف تصلي؟

إنَّ أحدكم إذا قام يصلي إنما يقوم يناجي ربه؛ فلينظر كيف يناجيه؟

إنكم ترون أنِّي لا أراكم؟ إني والله لأرى مِن خلف ظهري كما

أرى مِنْ بَـيْـنِ يديَّ» كذا في (الترغيب).

رؤيـتـه صـلـى الله عـليـه وآلـه وسـلـم أمـتـه إلـى يـوم الـديـن

روى الشيخان، والإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي معه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رُفع لي سواد ـ أي: جمع ـ عظيم، فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهم الذين: لا يرقون، ويسترقون، ولا يتطيَّرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»[1].

وقد تقدم هذا الحديث والكلام عليه، فرأىٰ أمته كلهم، والأمم قبله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقـد تـكـررت رؤيـتـه صـلـى الله عـليـه وآلـه وسـلـم لأمـتـه فـي مـنـاسـبـات مـتـعـددة:

جاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عُرِضت عليَّ أمتي بأعمالها: حسنها وسيئها، فرأيت في محاسن أعمالها إماطة ـ أي: إزالة ـ الأذى عن

(١) انظر (الفتح الكبير).

الطريق ، ورأيت في سيء أعمالها النُّخامة في المسجد لم تُدفن»[1] .

أي: يمر المسلم في المسجد يراها ويتركها موضعها ، فهذا عمل سيء يعاقب عليه .

قال العلامة المناوي: النخامة هي التي تخرج من الفم مما يلي أصل النخاع ، ذكره التوربشتي .

قال : وقال غيره : والمراد هنا البُصاق . ا هـ قلت : ويشمل ذلك كل شيء من الأوساخ فتجب إزالته .

فيجب على كل مسلم أن يحرص كل الحرص على نظافة المسجد؛ لأنه بيت الله تعالى .

وجاء في الحديث ، عن حذيفة بن أُسيد رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «عُرضتْ عليَّ أمتي البارحة لدى هذه الحُجرة ـ بضم الحاء أي: عندها ـ حتى لأَنا أعرفُ بالرجل منهم من أحدكم بصاحبه ، صُوِّروا لي في الطين»[2] .

وهذا مِنْ خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه عُرِض عليه أمته بأسرهم حتى رآهم كلهم ، رؤية جلية واضحة ، كما عُرض عليه ما هو كائن فيهم حتى تقوم الساعة ـ وكم له من خصائص خصه الله تعالى بها صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال العلامة الإسفراييني رحمه الله تعالى: وعُرض عليه صلى الله عليه وآله وسلم الخلق كلِّهم من لدن آدم فمن بعده . ا هـ .

---

(١) قال في (الجامع الصغير) : رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، وابن ماجه .

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني ، والضياء المقدسي ، ورمز لصحته . ا هـ .

رؤيته صلى الله عليه وآله وسلم حين حفر الخندق
قصور الشام وقصور مدائن كسرى
وصنعاء اليمن وممالكها
وأخبر صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه
أن الله تعالى قد أعطاه ذلك كله

روى الإمام أحمد ، والنسائي بإسنادٍ حسن ، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لما كان حين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحفر الخندق ، عَرضتْ لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول ، فاشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فجاء وأخذ المعول ـ أي: الفأس ـ فقال: «بسم الله» ثم ضرب ضربة نشر ثلثها[1] ، وقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح الشام ـ أي: مملكة الروم ـ والله إني لأُبْصِرُ قصورها الحُمر الساعة».

ثم ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «الله أكبر أُعطيت مفاتيح فارس ، وإني والله لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن».

ثم ضرب الثالثة فقال: «بسم الله» فقطع بقية الحجر[2] فقال:

---

(١) أي: قطع ، قال في (شرح المواهب): وجاء في راوية: فخرج نور أضاء ما بين لابتي المدينة.

(٢) جاء في رواية فخرج نور من قبل اليمن ، وأضاء ما بين لابتي المدينة ، كأن مصباحاً في جوف ليل مظلم.

«الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»[1] .

قال الحافظ الزرقاني في (شرح المواهب) : وروى الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما نحوه ، وأخرجه البيهقي في رواية مطولاً وفيه :

خط النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخندق لكل عشرة أناس عشرة أذرع ، فمرَّتْ بنا صخرة بيضاء ، وكسرت معاولنا ـ أي: الفؤوس ـ فأردنا أن نعدل عنها ، ثم قلنا: حتى نشاور رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فأرسلنا إليه سلمان رضي الله عنه ، وفيه ـ أي: رواية حديثه ـ فضرب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ضربة صدع الصخرة ، وبرق منها برقة ، فكبَّر صلى الله عليه وآله وسلم وكبر المسلمون ـ وفي رواية البيهقي : رأيناك تُكبر فكبرنا بتكبيرك ـ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن البرقة الأولى أضاءت لها قصور الشام ، فأخبرني جبريل عليه السلام أنَّ أُمتي ظاهرة عليهم» .

قال الحافظ الزرقاني: وفي آخره ـ أي : آخر حديث البيهقي بعد أن ذكر الضربات الثلاثة ، وتكبيره صلى الله عليه وآله وسلم عند كل برقة ، وتكبير أصحابه اتباعاً له صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بشرهم صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فرح المسلمون ، قال: ففرح المسلمون واستبشروا . ا هـ .

---

(١) انظر (المواهب اللدنية وشرحها) .

وجاء في رواية للبيهقي وابن سعد وابن جرير وغيرهم:

فقال المنافقون ـ حين فرح المسلمون ببشارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لهم ـ قال المنافقون: يُخبركم محمد أنه يُبصر قصور الشام من يثرب ـ أي: المدينة ـ وقصورَ الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق، ولا تستطيعون أن تبرزوا.

فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1].

وروى الحافظان السيوطي في (الخصائص) والزرقاني في (شرح المواهب) عن ابن إسحق أنه قال: حدثني من لا أتهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول حين فُتحت هذه الأمصار[2] في زمان عمر وعثمان: افتحوا ما بدالكم، والذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة؛ إلاَّ وقد أعطى الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيحها قبل ذلك. اهـ. أي: فالفضل للفاتح الأول صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم يرى ما لا يرى غيره، ويسمع ما لا يسمعون كما تقدم في الحديث.

---

(١) انظر (الخصائص الكبرى) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى، وغيرها.

(٢) أي: الممالك الكبرى التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين ضرب الصخرة.

ومن ذلك سَمْعُه الأصوات مع بُعد المسافات الشاسعة:

روى الطبراني في (الصغير) عن أم المؤمنين السيدة ميمونة رضي الله عنها أنها قالت: بات عندي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فقام ليتوضأ إلى الصلاة، فسمعته صلى الله عليه وآله وسلم يقول في متوضئه ليلاً: «لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ـ ثلاثاً ـ نُصِرْتَ نُصِرتَ نُصِرْتَ» ـ ثلاثاً ـ.

فلما خرج ـ أي: من متوضئه ـ قلت: يا رسول الله سمعتك تقول في متوضَّئك: لَبَّيْك لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ ثلاثاً، نُصِرتَ نُصِرت نُصِرت ثلاثاً، كأنك تكلِّم إنساناً فهل كان معك أحد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا راجز[1] بني كعب يستصرخني ـ أي: يستغيث بي ـ ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر».

ثم قالت السيدة ميمونة رضي الله عنها: فأقمنا ثلاثاً ـ أي: بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هذا راجز بني كعب» ـ ثم صَلَّىٰ عليه الصلاة والسلام بالناس صُبح اليوم الثالث فسمعتُ الراجز ينشده:

يارَبِّ إني ناشد[2] محمداً ... حِلفَ أبينا وأبيه الأتلدا[3]

إنَّ قريشاً أخلفوكَ الموعدا ... ونَقَضوا ميثاقك المؤكَّدا

---

(١) أي: قائل الرجز، وهو نوع من الشعر معروف.

(٢) أي: طالب منه النصرة.

(٣) أي: الأقدم، والتليد هو القديم.

وزعموا أنْ لستَ تدعوا أحدا[1] فـانصـر هـداك الله نصـراً أبـدا
وادع عبـاد الله يـأتـوا مـددا فيهم رسول الله قد تجرَّدا[2]

وزاد ابن إسحاق في روايته :

هـم بيَّتـونـا بـالـوتيـر هُجَّـدا وقَـتَّـلُـونـا ركَّعـا وسجَّـدا[3]

فقـال لـه رسـول الله صلـى الله عليـه وآلـه وسلـم : «نُصـرتَ ياعمرو بن سالم» وهو الراجز الذي أنشد ، وناشد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذا من جملة معجزاته السمعية صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه سمع صوتَ الراجز ينشد هذه الأبيات من بُعد ثلاث ، ولما وصل المدينة دخل المسجد فأنشدها بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاء في رواية الطبراني المتقدمة ، أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن سمع تلك الأبيات ، دخل على أمِّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأمرها أن تجهِّزه ـ أي : تهَيِّء ـ له أُهبة

---

(١) يخاطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي : زعموا أنك لستَ تدعو أحداً لنصرتنا . كما في (شرح المواهب) .

(٢) أي : شمر وتهيأ لحربهم كما في (شرح المواهب) وهؤلاء الذين أغاروا عليهم كانوا مشركين ، وذلك قبل فتح مكة المشرفة .

(٣) انظر (المواهب اللدنية وشرحها) وقد روى البزار من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بعض الأبيات المذكورة، وقال الحافظ الزرقاني : بإسناد حسن موصول، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي سلمة وعكرمة مرسلاً، كما في (الفتح) اهـ.

السفر ، وما يحتاج إليه في قطع المسافة ، وذلك لأنه يريد فتح مكة المشرفة ، وأمرها أن لا تُعلْم أحداً.

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وعند ابن إسحاق وابن عقبة والواقدي : أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لها : «جَهِّزينا وأخفي أمرك» .

وقال : «اللهم خُذْ على أسماعهم وأبصارهم[١] فلا يروننا إلا بغتة ، ولا يسمعون بنا إلا فلتة» وهذا من باب حقن الدماء والرأفة والرحمة.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون» يدخل في ذلك سماعه صلى الله عليه وآله وسلم عذاب أهل القبور.

روى الإمام مسلم ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : (بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حائط ـ أي : بستان ـ لبني النجار على بغلة له ونحن معه ، إذ حادت به بغلته ـ أي : نفرت ومالت عن الطريق ـ فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستةٌ أو خمسة أو أربعة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «من يعرف أصحاب هذه الأقبر»؟

فقال رجل : أنا.

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «فمتى مات هؤلاء»؟.

قال : ماتوا في الإشراك.

---

(١) أي : المشركين في مكة المكرمة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ هذه الأمة تُبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا ـ أي: تتركوا الدفن من شدة الفزع ـ لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه».

ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب القبر».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

فقال: «تعوَّذوا بالله من عذاب النار».

قالوا: نعوذُ بالله من عذاب النار.

قال: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن».

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: «تعوذوا بالله من فتنة الدجال».

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال).

وروى النسائي ، عن أنس رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمع صوتاً مِنْ قبر فقال: «متى مات هذا»؟

قالوا: مات في الجاهلية ـ أي: مات وهو مشرك.

فسُرَّ بذلك وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم عذاب القبر» كذا في (التيسير).

قلت: ورواه مسلم في (صحيحه) بلفظ: عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَرَّ بقبرين يُعذَّبان.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنهما يعذبان ، وما يعذبان في كبير ـ أي : عند كثير من الناس ـ بلى إنه كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة ، وأمَّا الآخر فكان لا يستتر من بوله» ـ أي : لا يتنزه ويَـتَحفَّظ من إصابة بوله .

رواه الشيخان ، وأصحاب السنن ، واللفظ للبخاري كما في (ترهيب) المنذري .

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال : بينا أنا أُماشي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو آخذ بيدي ورجل على يساره ، فإذا نحن بقبرين أمامنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّهما ليُعذَّبان ، وما يعذبان في كبير ـ وبلى» ـ أي : نعم إنه كبير ، يعاقب الله تعالى عليه ، وقد عاقبهما سبحانه بعد موتهما ـ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «فأيُّكم يأتيني بجريدة» ـ أي : جريدة نخل ـ .

فاستبقنا فسبقتُه ـ أي : سبق الرجلَ الآخر ـ فأتيته بجريدة ، فكسرها نصفين ، فألقىٰ على ذا القبر قطعة ، وعلى ذا القبر قطعة ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنَّه يُهوَّنُ عليهما ما كانتا ـ أي : ما دامتا ـ رطبتين ، وما يعذبان إلا في : الغيبة والبول» .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وغيره بإسناد رواته ثقات . ا هـ .

وهذا غير الحديث المتقدم ، وفيهما دليل على أنَّ من أعظم أسباب عذاب القبر النجاسة الحسية كالبول ، والنجاسة المعنوية

القولية كالنميمة والغيبة؛ وما هنالك من إيذاء الناس باللسان ، كما جاء في حديث رواه ابن حبان في (صحيحه) وفيه :

قال صلى الله عليه وآله وسلم : «هذان رجلان يُعذبان في قبورهما عذاباً شديداً في ذنب هيِّن» .

قلنا : فيم ذاك يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «كان أحدهما لا يستنزه من البول ، وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه ، ويمشي بينهم بالنميمة» .

فدعا بجريدتين من جرائد النخل ، فجعل في كل قبر واحدة .

قلنا : وهل ينفعهم ذلك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «نعم ، يخفَّف عنهما ما دامتا رطبتين» أي : بسبب تسبيحهما .

قال الحافظ المنذري بعد ما أورد هذا الحديث : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «في ذنب هين» أي : هيِّن عندهما وفي ظنهما ـ أي : الرجلين المعذبين ـ لا أنه هين في نفس الأمر ، فقد تقدم في حديث ابن عباس قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «بلى ، إنه ـ أي : الذنب الذي يعذبان به ـ كبير» .

قال : وقد أجمعت الأمة على تحريم النميمة ، وأنها من أعظم الذنوب عند الله تعالى . ا هـ .

هذا وإن تفصيل الكلام على حَقِّيَّةِ إثبات عذاب القبر ، وأنواعه ، وأسبابه مع الأدلة تجد ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) وكذا الكلام على إثبات حقية نعيم القبر وأنواعه مع الأدلة والحمد لله رب العالمين .

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ ﴾ ـ أي: المحتضر ـ ﴿ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ ـ أي: يصير فور موته في رَوْح وريحان وجنة نعيم، فإنَّ الفاء تدل على التعقيب الفوري ـ ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ والكلام على تفسير هذا مفصلاً تجده في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها).

روى الترمذي، والطبراني وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

فاعتبر في ذلك واتعظ، ولا تغرنَّك الدنيا.

ذكــرى

ينبغي لكل مؤمن ومؤمنة، المواظبة على قراءة سورة: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ فإنها من أعظم الأسباب المنجية من عذاب القبر، كما جاء ذلك في كثير من الأحاديث النبوية، وقد ذكرتها في أول تفسير السورة أي: سورة ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ فارجع إليه.

كما أنه ينبغي الإكثار من قول: (لا إلّه إلا الله) فقد روى الطبراني، والبيهقي، وأبو يعلى[١]، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في قبورهم، ولا منشرهم، وكأني أنظر إلى

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري، وشرح المناوي على (الجامع الصغير).

أهل لا إلّه إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

قال في (الترغيب): وفي رواية: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة عند الموت، ولا عند القبر».

وقد رواه الحافظ السيوطي في (الجامع الصغير) بلفظ: «ليس على أهل لا إلّه إلا الله وحشة في الموت، ولا في القبور، ولا في النشور، كأني أنظر إليهم عند الصيحة يخرجون من قبورهم وهم ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن».

وقد جاء في الحديث عن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر، عن أبيه الإمام محمد بن علي، عن جده الإمام زين العابدين، عن أبيه الإمام الحسين رضي الله عنهم، عن أبيه أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]، يرفعه ـ أي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ «من قال كل يوم وكل ليلة: لا إلّه إلا الله الملك الحقُّ المبين ـ مائة مرة، كان له ذلك أماناً من الفقر، وأنساً من وحشة القبر، واستفتح به باب الغنى ـ ضد الفقر ـ واستقرع به باب الجنة» أي: كان له رجاء محقق أن يُدخله الله تعالى الجنة بفضله سبحانه.

قال الحافظ القسطلاني والحافظ الزرقاني: قال بعض رواته ـ أي: رواة الحديث المتقدم ـ: لو رحلتم في هذا الحديث ـ أي:

---

(١) انظر (المواهب اللدنية) للحافظ القسطلاني و(شرحها) للحافظ الزرقاني رحمهما الله تعالى.

في طلب هذا الحديث ـ إلى الصين ما كان كثيراً ، ذكره عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله الإشبيلي الحافظ الفقيه المالكي الزاهد الورع ، صاحب التصانيف العديدة ، توفي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة في كتاب (الطب النبوي) ا هـ.

قال الشارح الحافظ الزرقاني: وأخرجه أبو نعيم ، والديلمي والخطيب في رواة الإمام مالك.

وهكذا ينبغي لكل مؤمن ومؤمنة أن يكثروا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لما في ذلك من الأجر العظيم ، والفضل الكبير في الدنيا والآخرة ، كما بينت ذلك في كتاب: (الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم).

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أولى الناس بي» أي: أقربهم منه صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة ، وأولاهم بشفاعته الخاصة ، وأحقهم بإفاضة الخيرات عليه ، وبدفع المكروهات وكربات الموقف ، وأهوال يوم القيامة ، ودفع المخاوف عنه.

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم.

وإن كثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم تدل على صدق الإيمان به ، والمحبة له صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرحم الله تعالى القائل :

صلُّوا عليه وسلِّموا تسليما حتى تنالوا جَنَّةً ونعيما
يا فوز من صلى عليه فإنه يبقى ويخلد في النعيم مقيما

يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ

إلى بابكَ العالي مددتُ يد الرجا ومن جاء ذاك الباب لا يَختشي الردى
سألتك يا ألله مستشفعاً بمن ضيا وجهه الوضَّاء يبرق في الدجى
فهب لي رضواناً وحسِّن عواقبي فأنت كريم لا تردُّ مَن التجا
وصلِّ إلٰهي كل آن ولمحة على خير رسْل الله هدياً ومنهجا
وآلٍ وصحب يا إلٰهي وتابع وكلِّ محبٍّ للحبيب الأبلجا

صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تم جمع هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه ، وفضله وإحسانه في الخامس من شهر رجب المبارك سنة ١٤١٩ هـ.

وإني لأسأل الله العظيم؛ رب العرش العظيم ، بجاه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم؛ أن ينفعني بجميع ما أكتبه ، وأن ينفع به عباد الله تعالىٰ ، وأن يكون جميع ذلك مقبولاً ومرضياً عند الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

كما وإني أسأل الله تعالى القريب المجيب ، أن يغفر لي ويرحمني ولوالديَّ ، وأن يُكرم منزلتهما ، وأن يرفع درجتهما ، وأن يجعلهما في أعلى مقامات أوليائه المقربين ، وأن يَغْفَر ويرحم جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات .

وصلى الله العظيم وسلم على سيدنا محمد ، وعلى آله ، وأصحابه ، وأتباعه ، ومحبيه ، وعلينا معهم أجمعين ، في كلّ لمحةٍ ونفسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم ، وكما يحبه مولانا ويرضاه ـ آمين .

والحمد لله رب العالمين

* * * *
* * *
* *
*

المحتوى

وصلى الله العظيم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه أجمعين ، وعلينا معهم يا رب العالمين ، في كل وقت وحين والحمد لله رب العالمين